



من
المسرد العالمي
الطبعة الثانية

حالة طوارئ

ألبير كامي

العدد الثامن

مارس 2009

تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET



حالة طوارئ

مسرحية من ثلاثة أقسام

تأليف:

ألبير كامي

ترجمة وتقديم:

د. كوثر عبدالسلام البحيري

مراجعة:

يحيى حقي

الطبعة الثانية ٢٠٠٩

من المسرح العالمي

تصدر كل شهرين عن
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
دولة الكويت

المشرف العام:
بدر سيد عبد الوهاب الرفاعي
الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

هيئة التحرير:
د. عبدالله الغيث
منصور صالح العنزي
عبد العزيز سعود المرزوق

almasrahalaalami@yahoo.com
almasrahalaalami@gmail.com

www.kuwaitculture.org

حالة طوارئ
تأليف: البيركامي
ترجمة وتقديم: د. كوثر عبدالسلام البحيري
مراجعة: يحيى حقي

الطبعة الثانية ٢٠٠٩ / الطبعة الأولى ١٩٨٩
دولة الكويت

ISBN: 978 - 99906 - 0 - 264 - 7

رقم الإيداع: (٠٠٦/٢٠٠٨)

حالة طوارئ البيير كامبي

الفهرس

رقم الصفحة

الموضوع

-
-
- | | |
|----|------------------------------|
| ٣ | ١- مقدمة بقلم المترجمة |
| ١٣ | ٢- إخطار |
| ١٥ | ٣- مسرحية «حالة طوارئ» |
| ١٨ | ٤- شخصيات المسرحية |
| ١٩ | ٥- القسم الأول |
| ٥٩ | ٦- القسم الثاني |
| ٩٧ | ٧- القسم الثالث |



مقدمة بقلم المترجمة

ولد ألبير كامى في ٧ نوفمبر سنة ١٩١٣ في «مندوفي»، وهو حي من أحياء مدينة قسطنطينة الجزائرية، وتم تعميده في هذه المدينة. وكان والده عاملا في إحدى شركات النبيذ، ومن أصل إلزاسي ونشأ نشأة مسيحية. أما أمه كاترين سانتيس، وهي من أصل إسباني، فهي كاثوليكية لا تمارس طقوس دينها. وكانت جدته التي تولت تربيته لفترة من صباه وكانت صاحبة تأثير عليه، كاثوليكية تقية.

وقد التحق كامى بإحدى المدارس الحكومية خلال الفترة ١٩١٨ - ١٩٢٣، وتابع الدراسة بعد ذلك مواصلا دراسته العليا تحت إشراف الأستاذ جان جرونييه. ومن هنا بدأ احتكاكه بالفلسفة التي حصل على الليسانس فيها من جامعة مدينة الجزائر، وواصل دراسته العليا، فحصل على دبلوم في الدراسات اليونانية والمسيحية، وخصوصا أفلوطين والقدّيس أوغسطين، كما درس باسكال وكيركجارد. وفي هذه الفترة اتصل بالحزب الشيوعي واعتق الآراء اليسارية. غير أنه لم يلبث أن ترك هذا الحزب، وشارك بدلا من ذلك في نشاط الحزب التحرري الوطني في الجزائر. وفي عام ١٩٣٨ عمل كامى محررا في جريدة «الجزائر جمهورية». ولكنه غادر الجزائر بعد ذلك ليعمل في باريس في صحيفة «باري - سوار» فترة قصيرة، عاد بعدها إلى الجزائر مرة ثانية ليعمل بالتدريس في مدينة وهران، وبدأت علاقته بجان بول سارتر عام ١٩٤٤. ومنذ ذلك التاريخ حفلت حياته بالإنتاج الأدبي الغزير المتتابع حتى مقتله في حادث سيارة عام (١٩٦٠).

ونورد الآن طرفا من أهم أعمال كامى، في عام ١٩٤٠ كتب قصة الغريب، وانتهى في العام التالي من كتابة أسطورة سيزيف، وفي عام ١٩٤٥ أخرجت له مسرحية كاليجولا، وبعد عامين نشر قصة الطاعون. وفي عام ١٩٤٨ كتب مسرحية حالة طوارئ التي تقدم لها. وكذلك مسرحية العادلون. وفي العقد

الأخير من حياته نشر ثلاثة كتب هي الصيف، والسقطة، والمنفى والمملكة. وحصل على جائزة نوبل للأدب عام ١٩٥٧.

لم يكن كامى فيلسوفا ولا معتنقا لنظرية فلسفية معينة، بل كان مفكرا له أسلوبه الذاتي. كما لم يكن من تلامذة جان بول سارتر ولا من الذين يعتقدون المذهب الوجودي. ولم تكن العلاقة بينهما سوى علاقة تفاهم فكري دام بعض الوقت، ثم ما لبث أن بددته الأيام وفصمت عراه الاختلافات الفكرية.

ولعل من أهم النواحي التي تثير انتقاد المعاصرين في ألبير كامى موقفه من الإيمان أو طريقة تفهمه لوجود الخالق. وكما أسلفنا فقد نشأ كامى نشأة دينية بعض الشيء، ولكنه ما كاد يشب عن الطوق حتى تخلص نهائيا عن إيمانه. ومع ذلك فقد كان من أكثر الكتاب قدرة على إثارة الإعجاب بالمخلوقات الخارقة وبالطبيعة التي هي من أول معجزات الخالق.

ولعل من أهم الأفكار التي حدثت كامى على أن يبتعد عن الإيمان هي فكرة عذاب الأبرياء ولاسيما الأطفال في الكوارث الطبيعية التي لا ذنب لأحد فيها. ومن أهم هذه الكوارث الطبيعية الأوبئة وهذه الفكرة ليست جديدة في الأدب الفرنسي، ومن قبل أثارها فولتير في قصيدته الشعرية المعروفة «مأساة لشبونة»، حيث تحدث عن الزلزال الذي أصاب مدينة لشبونة في عهده وقتل الكثير من الأبرياء.

ويرى كامى أنه لو تفشى وباء مثل الطاعون في مدينة ما وأخذ يفتك بالناس فتكا دون ما ذنب من أحد لصعب على العقل أن يصدق أن هذا انتقام من السماء لأن أهل المدينة قد حادوا عن الصواب واندفعوا وراء الغواية والشهوات. ولعل من أجمل ما كتب، تلك الصفحات التي تتبض بالألم في رواية «الطاعون» والتي يصف فيها العذاب الهائل الذي حاق بطفل أصيب بالطاعون، حتى أن القسيس الذي حضر احتضاره شعر بإيمانه وكأن صاعقة قد زلزلته زلزالا.

وكان لهذه الفكرة من التأثير على نفس كامي ما جعله يعالجها مرتين، مرة في روايته الطاعون، ومرة أخرى في مسرحيته حالة طوارئ^(١) التي نقدم هنا ترجمة لها.

وقد اختار كامي ميدانا لروايته الطاعون ميناء وهران الجزائري. أما في مسرحيته فقد اختار ميناء قادش الإسباني الذي لم يعد له وجود. ويقصد الكاتب من ذلك عدم تحديد زمان الرواية مكتفيا بأنه أي زمان في الماضي. وعلى الرغم من ذلك فثمة تفاصيل قليلة قد نستدل منها على أن زمان الرواية هو العصر الأندلسي.

تدور أحداث المسرحية، كما أسلفنا، في ميناء قادش الأندلسي، ولعل أول تشابه بين رواية الطاعون والمسرحية هو أن الأحداث في الحالتين تدور في أحد الموانئ ولعل تفسير ذلك أن الطاعون غالبا ما يبدأ تفشيه في الموانئ وينقل عن طريق الفئران التي تعيش في السفن حين ترسو السفينة على الميناء، وينزل أحد الفئران حاملا الميكروب إلى الميناء.

وثمة تفسير آخر لهذا التشابه هو شدة العذاب الذي يعانيه مجتمع الميناء من العزلة التي تفرض عليه في حالة الوباء، وهو الذي اعتاد الحياة مفتوحة متصلا دوما بالعالم الخارجي.

فرض وباء الطاعون إذن على سكان ميناء قادش بعد مرور أحد النجوم المذنبة بالمدينة، وهو نذير شر كان عادة يتبعه ظهور وباء الطاعون. وعلى الرغم من أن أهل قادش لم يكونوا يعيشون تحت حكم مثالي، بل كان حاكمهم أنانيا لا يفكر إلا في ملذاته الخاصة، وينفر من أي تغيير يستتبع مجهودا، فقد كانوا سعداء بحريتهم، لا يرضون منها بديلا ويتحملون في سبيل الاحتفاظ بها كل رذائل الحكم الذي كان يرسخ على أنفاس المدينة.

(١) الأصل الفرنسي للعنوان هو L'Etat de Siege والترجمة الحرفية له هي «حالة حصار»، ولكننا فضلنا ترجمته إلى «حالة طوارئ»، لأن المسرحية تصور مجتمعا كان في ظروف غير طبيعية طرأت عليه، لاتبث أن تزول فيعود المجتمع إلى حالته العادية.

وما كادوا يشعرون بأن أبواب المدينة قد أغلقت عليهم الواحد تلو الآخر حتى كان همهم هو الجري ناحية البحر محاولين الهرب. وكانوا وسط الوباء، وبعد أن سيطر المرض على حياتهم وكيف طريقة تفكيرهم، لايهفون إلا إلى النسمة الرطبة التي تأتي من ناحية البحر وإلى السفينة التي تمخر عبابه حاملة من على متنها إلى أركان العالم حيث يستشقون عبير الحرية في الفضاء العريض.

ويقهر الطاعون سكان المدينة ويخضعهم لسلطانه وجبروته، وتدين له الجباه، ويضع الشعب السدادات في الأفواه حتى لا ينبس ببنت شفة. ويستفيد الكثير من الانتهازيين من هذه الظروف التعسة مثل القاضي كازادو. ولكن هل يستطيع أي وباء أو أي مصيبة أن تقهر إرادة الإنسان الحر وتقضي عليه قضاء لا رجعة فيه؟ هذا ما يتعارض مع فلسفة ألبير كامي، فهو يؤمن بالإنسان وبأنه يستطيع أن يقهر كل شيء لو سيطر على إرادته سيطرة تامة. فإذا توصل إلى ذلك فليس ثمة قوة في الوجود تستطيع السيطرة عليه أو الحد من حريته وإرادته.

وهذه الفلسفة تتمثل في ديجو بطل المسرحية، فما هو الدور الذي أداه ديجو؟ إنه يمثل الصفوة من الجنس البشري التي لا تقبل الخضوع ولا الخشوع وتؤمن بنفسها إيماناً تاماً. ولقد رفض ديجو أن يخضع للطاعون الذي حاول قتل إرادته بجميع الوسائل. وعلى الرغم من إصابته به فحينما رأى الطاعون أن فرداً واحداً وسط قطعان البشر التي ذلت وخضعت - فرداً واحداً يرفع الرأس - أدرك أن نهايته قد اقتربت.

وفعلاً ينتصر ديجو ويضرب أعظم الأمثال لجموع الناس التي كانت قد فقدت كل أمل في تنفس عبير الحرية. غير أنه كان لابد من أن يدفع ثمن انتصاره غالياً.. فإما أن يعيش هو، أو تعيش فيكتوريا أحب الناس إلى قلبه. ومثله مثل جميع الأبطال المتميزين الذين يأتون إلى الأرض لضرب أمثلة البطولة والعظمة، ويكونون كالذبالة التي تضيء للناس وهي تحترق، يفضل ديجو أن يموت هو وتعيش فيكتوريا.

وهكذا ندرك أن الطاعون بالنسبة إلى كامي لا يعني الوباء في حد ذاته، بل المصائب الكبرى التي قد تشمل الديكتاتورية والاستعمار وقهر الإنسان للإنسان.



وهو يرى أنه مهما كان المصاب جللا فلا بد له من نهاية. ونهايته لا تأتي إلا بالإرادة وتمسك الإنسان بحريته وإيمانه بها. وهو يرى أن ثمة طائفة ممتازة ومتميزة من البشر تولد على الأرض بين الحين والحين لتشر هذه الفلسفة وتكون للناس نبрасا. وإذا كانت الأغلبية العظمى من الناس تدخل في نطاق القطيع أو السائمة مسلوية الإرادة التي تجر إلى مصيرها جرا فإنه يكفي وجود فرد واحد من هذه الطبقة الممتازة، مثل الدكتور برنار ريو في روايته الطاعون، ومثل ديجو في مسرحيته حالة طوارئ، ليوقظها ويكون هو نفسه مثلها الأعلى، ويعلمها كيف تحترم بشريتها وتمسك بإرادتها وتتخطى الصعاب وتسير على الأشواك في سبيل تحرير إرادتها.

تلك هي الفلسفة العظمى التي نادى بها ألبير كامى في رواية الطاعون، وعززها في مسرحية حالة طوارئ، فالطاعون هو قمة البلاء. ووسط البلاء قد يفقد الإنسان إيمانه بنفسه ويطأطأ الرأس ويستسلم لمصير يعتقد أنه محتوم. ولكن كلما كان البلاء شديدا سنحت الفرصة لوجود الإنسان المنقذ. وتلك حقيقة من حقائق الطبيعة الكبرى. فالرسل ومن في مستواهم أو من يقرب من منزلتهم لا يحلون في المجتمعات البشرية إلا حين يستشري البلاء ويعم الفساد. ويكفي ظهورهم ليبقى الإنسان شامخا بحريته وإرادته التي لو شاء لما استطاعت أي قوة على الأرض أن تنال منها شيئا.

فن كامى المسرحي

إن أكثر ما يميز كتاب القرن العشرين الفرنسيين كلهم، وفي جميع ألوان الأدب، هو البحث عن الجديد. ولقد كان ألبير كامى جديدا كل الجدة في جميع ما كتب، فحين أراد أن يكتب قصة صاغها في صورة مخالفة للشكل التقليدي الذي تعودناه من كتاب القصة، بل إنه لم يسمها قصة وفضل أن يطلق عليها كلمة «تأريخ» إيهاما للقارئ بأنه يسرد عليه أحداثا حقيقية عاشها يوما فيوما، وذلك في قصته المعروفة الطاعون، ولكننا لو تعمقنا بحث التكوين الهيكلي للطاعون لوجدنا على الفور أنها تحتوي على جميع مقومات القصة، ففيها البطل والبطلة (وإن كانت أقل أهمية)، وفيها العقدة أو قمة الأزمة، وفيها انفكاك العقدة في نهاية الرواية بخلاف الإطار العام وهو مدينة حل بها وباء الطاعون.

وكذلك الحال بالنسبة إلى مسرحية حالة طوارئ، فقد أراد ألبير كامي أن يعطيها تكويناً وحبكة مسرحية مختلفة تماماً عن التكوين والحبكة الكلاسيكية، فلم يقسم مسرحيته إلى مشاهد ولا إلى فصول، فقد اعتدنا أن تكون المسرحية الكلاسيكية من خمسة فصول، ثم نحاً المحدثون نحواً آخر بأن جعلوها من ثلاثة فصول، أو من فصلين أو من فصل واحد على أن يقسم الفصل إلى عدة مشاهد. أما كامي فقد قسم مسرحيته إلى ثلاثة أقسام تتوالى فيها المشاهد في وقت واحد تقريباً أو بالتبادل معتمداً على وسائل الإخراج الحديثة.

ويعتمد الإخراج الحديث على اتساع خشبة المسرح وتغيير الإضاءة فيها من مكان إلى مكان بسرعة فائقة، وبذا يمكن عرض عدة مشاهد في وقت واحد، من دون الحاجة إلى المسرح الدائري. فتارة تركز الإضاءة على السوق فنرى الشعب تمثله الجوقة ونرى السماك والعراف والعجوز الحيزيون والنشالين ... الخ. ثم تركز الإضاءة على بيت الحاكم فنرى الحاكم يحيط به قضاة ومستشاروه، وفجأة نلقى أنفسنا في بيت القاضي كازادو فتشاهده في عراك مع زوجته التي خانته ودست عليه ابنا ليس ابنه وهكذا، وكل هذا التغيير في المشاهد لا يعتمد إلا على إظلام جزء من المسرح وتركيز الإضاءة على الجزء المراد عرضه.

ويفترض ألبير كامي في مسرحيته كذلك أنها تعتمد على الوسائل المتقدمة جداً في الإخراج، وذلك فيما يختص بالمزج وظهوره تارة صغيراً وتارة كبيراً، تارة بعيداً وتارة قريباً، وكذلك الحال فيما يختص بالمؤثرات الصوتية. ولابد أن نلاحظ هنا أن ظهور مذهب أو إله في المسرح الفرنسي ليس جديداً، وكان يحدث حتى قبل المسرح الكلاسيكي لاسيما في الملاحم التي تعتمد على الإثارة والإدهاش والتي يسميها الفرنسيون épopées والتي كانوا يظهرون فيها الآلهة الميثولوجية والظواهر الطبيعية بوسائل فنية يسمونها: Deus ex machina. أي إظهار الآلهة بواسطة الآلات الخاصة، وغني عن القول أنها كانت وسائل تعتبر بدائية، إذا قيست بوسائل اليوم. وكذلك يستعين كامي في إخراج مسرحيته بالرياح الصناعية لأهمية الرياح في هذه المسرحية.

أما فيما يختص بالشخص فقد تمسك ألبير كامى بفكرة البطل والبطلة، وهما ديجو وفيكتوريا، وربطهما برباط سام من الحب الذي جعل منه أجمل وأنبى شعور يمكن أن يطرق القلب البشري، والهدف الأسمى الذي لا يشعر الإنسان بأهميته الحيوية بالنسبة إليه وإلى حياته والمحيطين به، إلا حين يحرم منه، كما جعل منه العامل الذي يخفف جو الطاعون الثقيل من جهة، والذي يعيش آثاره الهدامة على النفوس والنواحي المادية من حياة الإنسان من جهة أخرى.

واستعار كامى صفة من صفات الملحمة حين جسد الطاعون وسكرتيرته في صورة رجل وامرأة، وأدخل العامل غير الطبيعي الذي يجعل السكرتيرة تشطب في دفترها اسما فيسقط إنسان ميتا في أي ركن من أركان المدينة.

وفما عدا ذلك فقد انتقى كامى مجموعة من الشخصيات يعتبر كل واحد منهم نموذجا أو نمطا لطائفة من طوائف هذا المجتمع، بحيث يكون الجميع معا صورة مصغرة للمجتمع كله، فنرى الحاكم وقضاته وحرسه، ونرى طبقة المفكرين ممثلة في ديجو وفيكتوريا، والشعب ممثلا في السوق العامة، وفيها نرى الصياد والعراف وبائعة العطارة وألوانا مختلفة ممن يرتادون السوق. أما نادا فهو الأبله السكير الذي تسيل مع ذلك الفلسفة والحكمة على لسانه كما تسيل الخمر، ويعتبر عنصرا مهما من عناصر الفكاهة والتخفف من ثقل جو الطاعون المقبض في هذه المسرحية. وعموم الشعب تمثله الجوقة كما أسلفنا.

أما الديكور فلا بد أن يكون بسيطا غاية البساطة في مسرحية كهذه. ففي الخلفية نرى البحر وأمامه الرصيف تقريبا بصفة دائمة، فيما عدا المشاهد الداخلية مثل التي تدور في بيت القاضي كازادو وغيرها، ولا يحتاج الأمر إلا إلى صورة خلفية للدلالة على مكان المشهد مثل قصر الحاكم أو مقر حارس المقبرة ... الخ. وهذه البساطة في الديكور من مستلزمات سرعة تغيير المشهد من مكان إلى مكان على المسرح، بحيث إذا عدنا إلى مكان ما مرتين كان المشهد في المرة الثانية غيره في المرة الأولى.

وألبير كامى من الكتاب الذين يعتبرون مجالهم الحقيقي في البحث والدراسة هو نفس الإنسان لا مظاهره المادية، وكل مظهر مادي له دلالة نفسية. في مسرحية

حالة طوارئ يدرس الكاتب عدة مشاعر إنسانية بعضها يهدم الإنسان فلا تقوم له قائمة، وبعضها - على العكس من ذلك - يبعث فيه الحياة ويسمو به إلى مصاف المعجزات. ومن المجموعة الأولى الكراهية والخوف والأنانية. وقد رأينا كيف تمكن الطاعون من السيطرة على المدينة ببث الكراهية بين الناس، وكيف أن الأنانية تجعل الفرد يرفض إعطاء لقمة من الخبز لفرد آخر، وكيف أن الخوف جعل ديجو يطيش صوابه ويهرب ولا يأبه بنشر العدوى لغيره عن طريقه، لولا أن ارتد إليه صوابه فيعود لإتمام رسالته.

أما المشاعر البناءة التي تسمو بالإنسان فهي الحب والتضحية، وقد تجسدا في هذه المسرحية في ديجو وفيكتوريا، فكل منهما يحب الآخر أكثر من نفسه، وكل منهما على استعداد للتضحية بحياته من أجل الآخر.

وفيما يختص بأسلوب كامى اللغوي في هذه المسرحية، نراه يحاول أن يعطي كل مجال اللغة التي تناسبه ويُنتطق كل شخص من شخصه باللغة التي يتكلم بها في واقع الحياة. ف لغة الحاكم هي لغة التعالي والزهو والغرور، ولغة الشعب سواء على لسان رواد السوق أو الجوقة هي لغته في واقع الحياة، واهتماماته مادية أكثر منها معنوية تنحصر في الاحتياجات اليومية والشهوات الجنسية. وتتجلى قوة كامى اللغوية والتعبيرية، وطرافته في العثور على الجديد في الوصف والتعبير في أماكن كثيرة من المسرحية يبلغ فيها حد البلاغة الشاعرية النادرة. ويمتاز كامى بأنه يختار الفاظه بحيث تكون دلالة اللفظ في حد ذاتها شيئاً يسيراً بالنسبة إلى ما يخفى تحته من معان، ولذلك فالقارئ مضطر إلى أن يقرأ السطور وما بين السطور، وإلا فلن يبلغ فهمه للمسرحية الحد الذي ينشده المؤلف.

إلى أي لون من ألوان المسرحيات تنتمي مسرحيتنا هذه ؟ أهى تراجيديا (مأساة) أم كوميديا (ملهاة)، أم بين بين من ألوان التراجيديا / الكوميديا أو الميلودراما ؟

الواقع أن كامى - كما أسلفنا - اهتم بالبحث عن الجديد، شأنه في ذلك شأن جميع الكتاب المحدثين، ورفض رفضاً تاماً التقيد باللون الواحد في المسرحية الواحدة. فهي تجمع بين الألوان جميعاً فإذا استشرى الطاعون وأخذت السكرتيرة



تحذف في مفكرتها وتسقط الأجساد تتوالى الواحد تلو الآخر، فتحن في جو المأساة أو الملحمة، أما إذا انتقلنا إلى السوق وتشاجرت العجوز مع بائع السمك فتحن في صميم جو الملهاة، وإذا تحدث نادا السكير بالحكمة سواء صراحة أو تلميحاً، وأوضح للناس واقع أمورهم فتحن كذلك في جو الملهاة ذات الهدف الفلسفي.

ولعل أبلغ ما يقال في هذا ما يقوله ألبير كامى نفسه في الإخطار الذي نوره فيما يلي:

«إن مسرحية حالة طوارئ تعتبر من أجمل مسرحيات القرن العشرين وأعمقها، وقد بذل فيها مؤلفها جهداً فنياً ضخماً يضمن لها حياة طويلة على مر الأزمان».

ونرجو أن يستفيد القارئ العربي من قراءتها أو رؤيتها على المسرح ويستفيد من جميع النواحي الفنية والفلسفية التي أراد الكاتب تقديمها.





إخطار

في عام ١٩٤١ خطرت لصديقي بارو فكرة كتابة مسرحية حول موضوع الطاعون، وراود الموضوع نفسه كذلك أنطوان أرتو. وفي السنوات التي تلت ذلك بدا لبارو أنه من الأسهل في هذا الصدد اقتباس الكتاب الكبير «مذكرات عام الطاعون» لدانييل ديفو Daniel Defoe، ووضع حينئذ تخطيطا هيكليا لإخراج هذا الكتاب.

وحين تبادر إليه أنني أوشك من جهتي على نشر قصة حول نفس الموضوع عرض علي أن يكتب الحوار حول هذا التخطيط الهيكلي. وكانت لي أنا أفكار أخرى، أهمها أنه كان يبدو لي من الأفضل طرح فكرة دانييل ديفو جانبا والعودة إلى الفكرة الأولى التي راودت بارو.

كان الأمر يتعلق، بصفة عامة، بكتابة قصة يستطيع أن يفهمها جميع المشاهدين في سنة ١٩٤٨. مسرحية حالة طوارئ ما هي إلا تصوير لهذه المجادلة التي أعتقد - وتلك ناحية من نواحي ضعفي - أنها تستحق الاهتمام.

ولكن :

١ - ينبغي أن يكون واضحا أن حالة طوارئ، على الرغم مما قيل عنها، ليست بأي حال من الأحوال اقتباسا لروايتي.

٢ - لا يتعلق الأمر معها بهيكل مسرحي تقليدي، ولكن بمسرحية هدفها الصريح هو خلط جميع ألوان التعبير المسرحي ابتداء من الحديث المنفرد العاطفي إلى المسرح الجماعي مع المرور بالمسرح الصامت والحوار البسيط والملهات التهريجية «الفارس» Farce والأناشيد المرتلة.

٣ - إذا كان صحيحا أنني كتبت النص برمته فهذا لا يمنع أن اسم بارو ينبغي أن يكون مقرونا باسمي، فله الحق في ذلك كل الحق. وإذا لم يكن بالمستطاع تنفيذ ذلك لأسباب بدت لي أهلا للتقدير فلا بد لي من أن أقول بوضوح أنني مازلت مدينا لجان لوي بارو...

ألبير كامي

٢٠ نوفمبر ١٩٤٨



حالة طوارئ

مسرحية من ثلاثة أقسام

تأليف
ألبير كامو

ترجمة وتقديم
د. كوثر عبدالسلام البحيري

مراجعة
يحيى حقي

العنوان الأصلي للمسرحية :

ALBERT CAMUS

L'ÉTAT
DE SIÈGE

Spectacle en trois parties



GALLIMARD

شخصيات المسرحية

La Peate	الطاعون
La Secretaire	السكرتيرة
Nada	نادا
Victoria	فيكتوريا
Le Juge	القاضي
La femme du Juge	زوجة القاضي
Diégo	دييجو
Le Gouverneur	الحاكم
L' Alcade	قاضي البلدية
Les femmes de la Cité	نساء المدينة
Les Hommes de la Cité	رجال المدينة
Les Gardes	الحرس
Le Condoyeur des Morts	الللحاد

أول عرض لها قدمته فرقة مادلين دينو وجان - لوي بارو يوم ٢٧ أكتوبر ١٩٤٨ على مسرح مارييني.

القسم الأول



تقديم

افتتاحية موسيقية محورها نغمة رنانة متصلة تذكر بصفارة الإنذار. يرفع الستار. المسرح يسوده الظلام.

تنتهي الافتتاحية، ولكن نغمة الإنذار لاتختفي، وتظل تسمع وكأنها طنين آت من بعيد.

وفجأة من غيابة المسرح يبرز من ناحية الغناء نجم مذنّب ويتخذ مساره ببطء إلى ناحية الحديقة.

وترسم تحت ضوء المذنّب - كأنما على ستار لعبة خيال الظل - شخوص جدران مدينة إسبانية محصنة، وأناس عديدين تدير ظهورها للجمهور وتقف جامدة بلا حراك، الرؤوس مشرّبة نحو المذنّب، والحوار يكاد يكون غير مفهوم كما لو كان همهمة مبهمّة.

- إذن لو فني العالم.
- حسبك أيها الرجل، العالم قد ينقضي أجله، أما إسبانيا فهيها أن تموت.
- حتى إسبانيا قد يجري عليها الموت.
- اجث على ركبتيك
- إنه مذنّب نذير شر للعالم.
- لا لإسبانيا أيها الرجل، لا لإسبانيا.

ويستدير رأسان أو ثلاثة، ويتحرك شخص أو شخصان في حذر، ثم يستعيد الجميع وقفتهم الجامدة. حينئذ يشتد الطنين حدّة، ويصبح خارقا للأذان ويتموج في نغمة موسيقية كأنه نطق بكلام له معنى وينطوي على التهديد، على حين يتضخم حجم المذنّب بإفراط. وفجأة تند صرخة هائلة من امرأة، فتخرس النغمة الموسيقية وتعيد المذنّب إلى حجمه المألوف وتهرب المرأة وهي تلهث، ويشيع الهرج والمرج في الميدان، ويزداد تحول الكلام في الحوار من اللفظ إلى الهسيس، فتزداد قدرة الأذن على التقاطه وإن لم يتأت بعد فهمه.

- إنه علامة على الحرب.
- بكل تأكيد.



- لا علامة هو على شيء.
- الأمر يتوقف...
- كفى، إنه إنه الحر.
- حر مدينة قادش.
- كفى.
- ما أقوى صفيره.
- والأدهى أنه يصم الأذان.
- إنه طالع نحس رمى ظله على المدينة.
- (يتوجع) أي قادش، إن طالع نحس رمى ظله عليك.
- صه، صه.

يعود الناس فيركزون أنظارهم على المذنب، ويسمع في وضوح هذه المرة صوت ضابط من الحرس المدني.

ضابط الحرس

- | | | |
|--------|---|---|
| المدني | : | عودوا إلى منازلكم. لقد شاهدتم ما شاهدتم وهذا يكفي. إنه ضجيج لاشيء، هذا كل ما في الأمر. ضجة كبيرة بلا طائل، ما الذي جد ؟ إن قادش هي دائما قادش في نهاية الأمر. |
| صوت | : | ومع ذلك فتلك علامة. وليس ثمة علامات بلا مقتض. |
| صوت | : | ربنا ياله من رب عظيم جبار. |
| صوت | : | الحرب وشيكة، هذا ما تقوله العلامة. |
| صوت | : | في عصرنا لم يعد أحد يؤمن بالعلامات أيها الأجر، فمن حقنا أن لنا عقولا أذكى من أن تخطئ الفهم. |
| صوت | : | نعم، ولهذا تتصدع منا الرؤوس لكي نحسن فهم هذه العلاقة، نحن الآن بلا إدراك، شأننا شأن البهائم، غير أن البهائم يفرغ منها بالذبح. |
| الضابط | : | عودوا إلى منازلكم، فالحرب شغلنا نحن لاشغلتكم. |



نادا	(بمضض) ليت قولك كان صدقا، ولكن كلا، فالضباط يموتون في فراشهم، أما طعنة السيف فلنا نحن.
صوت	نادا - ها هو نادا، هو هو الأبله.
صوت	أي نادا، أنت حقيق بأن يكون عندك العلم، قل لنا ما معنى هذا ؟
نادا	(وهو من ذوي العاهات) إن ما أريد قوله لكم لاتحبون سماعه وستتهكمون عليه. اسألوا الطالب فهو سيصبح طبيبا بعد قليل. أما أنا فأتحدث إلى زجاجتي. (يرفع زجاجته إلى فمه)
صوت	خبرنا يا ديجو، ما عساه يريد أن يقول ؟
ديجو	وما شأنك ؟ احتفظ بقلبك ثابتا. وكفيك هذا.
صوت	اسألوا ضابط الحرس المدني.
الضابط	إن الحرس المدني يرى أنكم تخلون بالنظام العام.
نادا	إن الحرس المدني محظوظ، فله أفكار بسيطة.
ديجو	انظروا، إنه يطلع مرة أخرى.
صوت	ربنا يا له من رب عظيم جبار.
	(يعود الطنين من جديد والمذنب في دورته الثانية)
-	أما من نهاية ؟ أما من اكتفاء ؟
-	قادش.
-	إنه يصغر.
-	إنه طالع نحس.
-	رمى ظله على المدينة.
-	الزموا الصمت، الزموا الصمت.
	وتدق الساعة الخامسة ويختفي المذنب ويطلع النهار.
نادا	(يقهقه ضاحكا وهو يقتعد صوة ترقم طول الطريق)

اسمعوا إذن ما أقوله لكم، هكذا أنا نادا نور هذه المدينة علما ومعرفة وابنها السكير، ازدراء مني لكل شيء وتقززا من كل مجد، أنا الذي يسخر الناس مني لأنني احتفظت بحرية مواجعتهم باحتقاري لهم، بعد هذه العلامة التي هي عندي أشبه بالألعاب النارية يهمني أن أبادركم بتحذير أتبرع به، ولا أسألكم عليه أجرا، اعلموا عني أننا الآن قد وقعنا في النكبة التي تترصدنا، ويستزاد مع مضي الزمن افتراسها لنا. أنبهكم إلى أننا كنا قد وقعنا فيها من قبل، ولكن من لها بمن يلحظها سوى سكير مثلي، فما هو إذن موقفنا الآن ؟ على الرجال الحكماء منكم تبصيرنا به بجدس من مظنتهم. أما أنا فقد استقر ذهني على رأي منذ أمد بعيد، ولا زعزعة عندي لمبدأ أعتقه. الحياة والموت سيان، والإنسان حزمة من نفس الحطب الذي يوقد للمحكوم عليهم بالموت حرقا.

صدقوني، ستصادفكم متاعب جمّة، فإن هذا المذنب علامة شر، إنه يوقظكم من غفلتكم، فالخطر وشيك.

قد لا يبدو هذا الخطر أهلا للتصديق، وهذا ما كنت أتوقعه منكم، فمادمتم قد تناولتم وجباتكم الثلاث وأديتم فرصة عملكم ثماني ساعات، وأرضى الواحد منكم زوجته وضرتها فقد تصورتكم أن كل شيء قد احتل موقعه اللازم له ضمن النظام السائد. كلا، لم تجعلوا مواقعكم وفق نظام، بل ضمن صفوف تنظيم، فتلزمون صفكم. والآن قد استقامت صفوفكم وارتسم الاستسلام على وجوهكم. إذن قد نضجتم لكي تلتهمكم النكبة.

دعوني أيها الإخوان الطيبون، فقد فرغت من توجيه إنذاري إليكم وأرضيت ضميري. أما بقية الأمور فلا تشغلوا بها فتصرفها في يد وقوى تعلوكم، وأنتم تعلمون ماذا ينتظر منها، أنها قوى لا تتساهل.



- القاضي كازادو : لا تجدُف يانادا، أنت من قديم تبيع لنفسك أن تأثم بالتطاول على السماء.
- نادا : أتراني أيها القاضي قد ألمحت إلى السماء في كلامي ؟
- القاضي كازادو : إنني على كل حال أقرها على جميع ما تفعل، هذا حكمي... إنهم الإباحيون الذين على شاكلتك هم الذين يجلبون علينا الإنذارات السماوية. ذلك لأنه في الواقع إنذار، ولكنه موجه إلى جميع الذين فسدت قلوبهم. ولتخشوا جميعا عواقب أوخم تتوالى، وادعوا السماء أن تكفر خطاياكم، اجثوا إذن على ركبكم. اقول اجثوا على ركبكم. (الجميع يجثون على ركبهم ماعدا نادا)
- القاضي كازادو : لتكن لك خشية من السماء يانادا واجث على ركبتك.
- نادا : الجثو لا أستطيعه لأن ساقي متخشبة. أما عن الخشية التي تريدها أن تتلبسني فلم تعد دعوة إليها تفاجئني، فأنا أصبحت على علم بكل الذي ينبغي لي أن أخشاه، وأسوأ ما أخشاه هو مواعظك الأخلاقية.
- القاضي كازادو : ألا تعتقد إذن في شيء أيها التعس ؟
- نادا : لا أعتقد في شيء في هذا العالم، اللهم إلا النبيذ ...
- القاضي كازادو : اغفر له يا إلهي مادام لا يعي ما يقول، واحفظ هذه المدينة مدينة أبنائك.
- نادا : انصرفوا، فقد انتهى القداس. إليّ بزجاجة يا ديجو احتفاء بالمذنب ثم قص عليّ مغامراتك الغرامية.
- ديجو : سوف أتزوج من ابنة القاضي يانادا. وأود لو أنك من الآن فصاعدا كففت عن توجيه الإهانات لأبيها. إن في ذلك إهانة لي أنا أيضا.
- (أصوات طبول تقرر ويدخل مناد يحيط به الحراس)
- المنادي : أمر من الحكومة: على كل فرد أن ينسحب ويستأنف مزاولة أعماله. إن الحكومات الصالحة هي الحكومات التي لا

يحدث فيها شيء. تلك هي إرادة الحاكم ألا يحدث شيء في حكومته حتى يظل حاكما صالحا كما كان دائما. وعلى ذلك فنحن نؤكد لأهالي مدينة قادش أن شيئا لم يحدث اليوم يستحق أن يفزعوا ويقلقوا. ولذلك يجب على كل فرد، ابتداء من هذه الساعة السادسة أن يعتبر رأى مذنّب في سماء المدينة أمرا لا صحة له. وكل من يخالف هذا القرار، وكل ساكن من سكان المدينة ينبغي له أن يتحدث عن المذنبات بطريقة تختلف عن كونها ظواهر فلكية، فهذا شأنها في الماضي وفي المستقبل، فسوف يعاقب بلا رحمة.

(دقات طبول وانسحاب المنادى)

- نادا : حسن يادييجو، ماذا أنت فاعل ؟ إنها ضالة عثروا عليها.
- دييجو : إنها حماقة. والكذب دائما حماقة.
- نادا : كلا إنها سياسة، وسياسة أويدها مادامت تهدف إلى إلغاء كل شيء. يا له من حاكم طيب هذا الذي يحكمنا هنا. فإذا أصاب ميزانيتّه العجز، وإذا دخلت الخيانة الزوجية إلى بيته، فما عليه إلا أن يحذف العجز وينكر الخيانة الزوجية. أيها الزوج المخدوع، إن زوجتك مخلصّة، أيها المشلولون، إن في مقدوركم المشي، أيها العميان، أبصروا، تلك هي ساعة الحق.
- دييجو : أنت تتعق كالبومة، فكف عن إنذارنا بالمصائب، فإن ساعة الحق التي تعنيها إنما هي ساعة القضاء بالموت.
- نادا : صدقت، فلتمت الدنيا بأكملها. آه لو استطعت أن أجعلها تمثل أمامي قطعة واحدة كأنها ثور ترتجف قوائمه وتتقد عيناه الدقيقتان بالمقت والضعيفة، ويتبلل خشمه بلعاب عكر رخو مثل كساء متسخ من الدنتيلا، إذن يا لها من لحظة، فإن يدي، هذه التي أوهنها الكبر لن تتردد، ستخز منه حبل الوتين بطعنة واحدة فتتهوي الدابة المصعوقة، وتظل تهوي إلى الأبد عبر أجواء تتوالى بلا نهاية.



دييجو : أفلا تبقى على شيء لا تحتقره يانادا ؟ اقتصد في احتقارك، فاسوف تحتاج إليه ليسندك.

نادا : إنني لست في حاجة إلى شيء. ولديّ من الحقد ما لا ينفد، إلى أن ينفد عمري، فما من شيء في هذه الأرض، ملكا متوجا أم نجما مذنبا أم شريعة أخلاقية، أراه أبدا أسمى مني.

دييجو : اهدأ ولا تفرط في التعالي، وإلا تناقص حب الناس لك.

نادا : إنني فوق كل شيء مادمت لم أعد محتاجا إلى شيء.

دييجو : لا أحد يتعالى على الشرف.

نادا : وما هو الشرف يابني؟

دييجو : إنه ما يجعلني أقف على قدمي.

نادا : إن الشرف ظاهرة فلكية في الماضي أو في المستقبل، فلتحذفها.

دييجو : أتركك بخير يانادا، ينبغي لي أن أنصرف، فهي تنتظرني، وانتظارها لي هو الذي يجعلني لا أؤمن بالكارثة التي تعلنها أنت، لا بد لي أن أتوفر على بناء سعادتي وهذا عمل طويل يتطلب أن يسود السلام كل المدن والقرى.

نادا : لقد قلت لك ذلك من قبل يابني. إننا قد وقعنا فعلا في الكارثة، فلا تأمل شيئا، والملهة يوشك أن يرتفع ستارها ويكاد الوقت لايسعفني لكي أمضي إلي السوق وأشرب نخب هلاك الخلق جميعا.

(تتطفئ الأضواء كلها)

(نهاية التقديم)

(تعود الإضاءة. هرج ومرج عام. الإشارات أشد اندفاعا والحشد أسرع تنقلا، موسيقى، أصحاب المتاجر يسدلون بال جذب خصاصها، ويزيحون معارضهم المرصوفة في مقدمة المسرح فينكشف ميدان السوق. فريق المنشدين في جموع الشعب، يتقدمه نفر من صائدي الأسماك يملأون الميدان شيئا فشيئا، وهم في نشوة كبيرة)

الجوقة

إن شيئاً لا يحدث، ولن يحدث شيء... إلى الهواء الطلق. إنها ليست كارثة بل وفرة من بركات الصيف وخيراته. إن الربيع ها هو ذا لم يكد يستوفي أيامه، وإذا بثمار البرتقال الذهبي، يرتقال الصيف، ترشق بها الأرض، مقذوفة إليها على عجل عبر السماء فتعتلي قمة الموسم وتشقق من النضج بطونها فوق إسبانيا فيسيل منها الشهد، وإذا بجميع الفواكه التي جاد بها كل صيف في أرجاء الأرض، من عنب عسلي القشرة وشمام في لون الزيد وتين يزخر بالدم ومشمش يسطع باللهب يتوالى في ذات الوقت وروداً، وتتدحرج إلى معارض أسواقنا. إيه أيتها الفاكهة. إنها هنا تختم رحلتها الطويلة السريعة التي أتت بها من الريف، حيث كانت قد بدأت تثقل بالماء والسكر فوق حقول زرق من فرط دفتها، ووسط آلاف من العيون المشمسة يتجمع تدفقها شيئاً فشيئاً في تيار واحد من ماء الشباب تشربه الجذور والسيقان، فيصعد به إلى قلب الثمار ثم ينتهي بأن يسيل على مهل كأنه نضح لا ينضب من نافورة من عسل، فتسمن عليه الثمار وتزيد من ثقلها درجة بعد درجة، الثمار تثقل ثم تثقل حتى يبلغ من ثقلها أنها تغطس في غمر من ماء السماء، وتتدحرج فوق العشب المكثف، وتركب الأنهار، وتعبّر كل الطرق فيزفها من جميع أركان الأفق هتاف الفرح من الشعب وصدح الأنغام من الأبواق.

(عزف قصير من أبواق)

تأني في زحام إلى مدن البشر شاهدة على أن الأرض طيبة، وأن السماء أم الضرع لا تخلف للرخاء موعداً للقاء. (صيحة فرح عالية) كلا، إن شيئاً لا يحدث، ها هو الصيف. إنه رسول يحمل العطايا لا الكوارث، أما الشتاء فحسابه مؤجل والخبر اليابس له يومه لما تشرق شمس، أما اليوم فخيرات وبركات: سمك المرجان والسردين والروبيان أسماك طازجة قادمة من بحار هادئة، ثم الجبن المخلوط بالأعشاب المعطرة ولبن المعز ذو الرغوة كأنها رغوة صابون تدعكه يد غسالة، وعلى صحاف من الرخام شرائح من اللحم تتقبض ناصيتها لفائف من الورق الأبيض، لحم تُشم منه رائحة الكلاً ويتيح للإنسان أن يجتر الدم وعصارة الحياة والشمس معا في آن واحد.



إلى الكأس، إلى الكأس. لنشرب كأس المواسم، لنشرب حتى النسيان فلن يحدث شيء.

(صيححات فرح وصدح أبواق موسيقى. وتدور

مشاهد صغيرة هنا وهناك في السوق)

المتسول الأول : أعطني صدقة يارجل، أعطيني صدقة يا جدتي.

المتسول الثاني : بادروا بالإحسان قبل فوات الأوان.

المتسول الثالث : إنكم تفهمون مقصدنا.

المتسول الأول : لم يحدث شيء، وهذا أمر مفروغ منه.

المتسول الثاني : ولكن ربما يحدث شيء.

(ينشل ساعة أحد المارة)

المتسول الثالث : ضاعفوا صدقاتكم دائماً، فضمان ثوابين خير من ضمان ثواب واحد.

(في سوق السمك)

الصيد : سمكة مرجان طازجة وكأنها زهرة من زهور القرنفل، زهرة البحار وأنتم لا شيء يعجبكم.

العجوز : إن سمكتك هي كلب من كلاب البحر.

الصيد : كلب بحر ؟ لم يدخل كلب بحر هذا الحانوت، إلا حين أتيت أنت.

العجوز : إيه يابن أمك. انظر إلى شعري الأبيض.

الصيد : انكشح أيها المذنب العجوز.

(يقف الجميع بلا حراك. كل منهم وضع سبابته فوق شفثيه)

دييجو : طال عليّ البعاد.

- فيكتوريا أيها المجنون، لقد افترقنا في الساعة الحادية عشرة هذا الصباح.
- دييجو نعم، ولكن أباك كان موجودا.
- فيكتوريا إن أبي قال نعم، وكنا على يقين من أنه سيقول لا.
- دييجو لقد أصبت في التوجه إليه رأسا ومواجهته.
- فيكتوريا لقد كنت مصيبا، وأثناء استغراق أبي في التفكير كنت أنا مغلقة العينين، استمع في أعماق نفسي إلى خطوات تجري من بعد وتقرب وتزداد سرعة، حتى جعلت أوصالي جميعا ترتعد. ثم ترتج باللهفة ثم أخذت إلى الهدوء. إنها في انتظارنا نحن.
- دييجو أما أنا فلم أكن بالأصم ولا الأعمى، ولكني كنت لا أسمع إلا صهيل قلبي الطروب، فقد نلت فرحتي فجأة فلم يمتحن صبري. إيه يامدينة النور، ها هم قد أسلموك إلي مدى الحياة حتى الساعة التي تدعونا فيها الأرض إلى أحضانها، في الغد سوف نرحل معا، ونمتطي صهوة جواد واحد.
- فيكتوريا نعم تكلم بلغتنا حتى لو بدا ذلك جنونا في حكم الآخرين. وفي الغد سوف تلثم فمي، وأنظر أنا إلى فمك، ويتأجج خدي نارا. قل لي، أهذه هي ريح الجنوب ؟
- دييجو إنها ريح الجنوب وهي تلهبني كذلك بسياطها. أين هي النافورة التي تسقيني منها ؟
- (يقترّب ويدخل ذراعيه من بين العوارض وتضم هي كتفيه)
- فيكتوريا آه. كم يضمنيني اتقاد حبي لك. اقترّب أكثر.
- دييجو كم أنت جميلة !
- فيكتوريا كم أنت قوي !



دييجو

بماذا تغسلين وجهك هذا حتى يصبح في بياض اللوز.

فيكتوريا

إني أغسله بماء صاف ويضفي عليه الحب رونقه.

دييجو

وشعرك في مثل طراوة الليل.

فيكتوريا

هذا لأنني كل ليلة انتظرك في نافذتي.

دييجو

هل الماء الصافي والليل هما اللذان يضفيان عليك رائحة
شجرة الليمون؟

فيكتوريا

كلا، إنها ريح حبك التي تأتي لها في يوم واحد أن تدثرني
بالزهور من الرأس إلى القدم.

دييجو

وسوف تسقط الزهور.

فيكتوريا

ولكن الثمار في انتظارك.

دييجو

وسوف يأتي الشتاء.

فيكتوريا

ولكن بصحبتك. أتذكر ما غنيت لي أول مرة ؟

ألم يزل ذلك صحيحا ؟

دييجو

بعد موتي بمائة عام

سوف تسألني الأرض: ألم يحن بعد نسيانك لها؟

فأجيب: كلا لم يحن بعد، لم يحن بعد .

(فيكتوريا تلزم الصمت)

دييجو

ألا تقولين شيئا؟

فيكتوريا

ألجمت السعادة لساني.

(تحت خيمة العراف)

العراف لامرأة

إن الشمس يا جميلتي اجتازت برج الميزان لحظة ولادتك،
مما يتيح اعتبارك من مواليد برج العذراء مادام برجك
الطالع هو الثور الذي يعلم الجميع أنه خاضع للعذراء. إن
طبيعتك إذن عاطفية حنون ومرحة، ولك أن تطيبي نفسا
بذلك على رغم أن برج الثور يؤهل للعزوبة، وقد يترك هذه

الصفات القيمة معطلة. وعلى كل فأنا أرى اندماجا بين العذراء وزحل، وهو اندماج ضار بالزواج والإنجاب. وهذا الإندماج ينبئ كذلك بضروب عجيبة من الاشتهااء يخشى معها من أوجاع تصيب البطن. ومع ذلك فلا تتواني واسعي إلى الشمس التي تزيد من عافية الذهن وجللاء الضمير، وهي المسيطرة على عصارات البطن واختاري أصدقاءك أيتها الصغيرة من بين مواليد برج الثور، ولا تنسي أن موقفك يتجه اتجاهها سليما مواليا يحقق لك المرح. الأجرة ستة فرنكات.

(يقبض النقود)

شكرا. أنت واثق مما قلت لي أليس كذلك ؟

المرأة

دائما أيتها الصغيرة، دائما. ومع ذلك ينبغي ألا يغيب عن حسابنا أنه لم يحدث شيء هذا الصباح، هذا هو المفهوم وإن الذي لا يحدث قد يفسد طوالي، أنا لست مسؤولا عما لم يحدث.

العراف

(المرأة تتصرف)

اطلبوا طالعكم. الماضي، الحاضر والمستقبل الذي تضمنه الكواكب الثابتة. أقول الثابتة (ثم يحدث نفسه) وإذا تدخلت فيه المذنبات صارت هذه المهنة مستحيلة. يجب أن يصبح المرء حاكما.

العراف

(بعض البوهيميين معا : صديق يريد لك الخير، سمراء معطرة كزهر البرتقال، سفر طويل إلى مدريد، ثروة موروثة عن أميركان)

بعد وفاة الصديق الأشقر سوف تتلقى خطابا أسمر. (في غيابة المسرح منصة ترفعها حوامل خشبية كالتي يستعين بها المسرح المتقل، فوقها رجل يستجلب إليه انتباه الجمهور بدقات من طبلة عسكرية).

واحد منهم فقط



الممثلون

افتحن أعينكن الجميلة أيتها السيدات الرشيقات. وأنتم أيها السادة أعيرونا آذانكم. إن الممثلين الذين ترونهم هنا هم من بين أرياب مهنتهم، أعلاهم قدرا وأوسعهم شهرة في مملكة إسبانيا. وقد أقنعتهم بعد مشقة بترك البلاط والحضور إلى هذه السوق، سيمثلون لكم لإمتاعكم فصلا مبعجلا من مسرحية الأرواح للكاتب الخالد بدرو دي لا ريبا، وهي مسرحية ستدهشكم، رفعتها أجنحة العبقريّة دفعة واحدة إلى علياء الروائع العالمية صاغتها بمقدرة جبارة، وبلغ من عشق ملكنا لها أنه أمر بأن تمثل أمامه مرتين يوميا، وكان سيسعده أن يواظب على مشاهدتها لو لم أبصر هذه الفرقة المنقطعة النظير بأن المصلحة والضرورة الطارئة تقضيان بعرضها للتعريف بها في هذه السوق أيضا سُموا بمدارك أهل قادش، وهم أفضل أبناء إسبانيا حنكة وفطنة! اقتربوا إذن فسوف يبدأ العرض.

(يبدأ العرض فعلا، ولكن أحدا لا يسمع الممثلين، لأن أصواتهم تغطيها ضوضاء السوق)
إلى الهواء الطلق إلى الهواء الطلق.

ادخلوا لتروا حورية نصفها امرأة ونصفها سمكة.

السرددين المقلّي، السرددين المقلّي.

هذا أستاذ الهرب، فر من جميع السجون.

اشتري طماطمى أيتها الجميلة، إنها ناعمة مثل قلبك.

دنتلا وملابس الزفاف.

بلا ألم ولا خداع ألعبان، إنه بدرو الذي يخلع الإنسان.

(يخرج من الحان وهو سكران)

نادا

اسحقوا كل شيء، هذه الطماطم وأشباهاها من القلوب فلنهرسها، وأستاذ الهرب نزج به في السجن، وأسنان بدرو نخلعها، والعراف الذي لم ينبئنا بكل هذا الذي سنفعله

نسوقه إلى المشنقة. وحرورية البحر سمكة فلنأكلها. وكل ما
تبقى نطرحه إلا الخمر.

(يدخل تاجر أجنبي يرتدي ثيابا فاخرة إلى السوق وسط
تسابق عدد كبير من الفتيات)

اطلبوا، اطلبوا الشريط الحريري، شريط المذنب.
صه صه.

التاجر
الجميع

(يذهب إليه الناس ويبينون له همسا في أذنه أن ذكره
للمذنب في ندائه حماقة لا تسلم عقباها)
اطلبوا، اطلبوا شريط النجمة الأصلي.

التاجر

(الجميع يشتررون من الشريط، صيحات فرح، موسيقى،
ويصل الحاكم وحاشيته إلى السوق ويقف كل في مكانه).

إن حاكمكم يحييكم، ويسره أن يراكم متجمعين في الأسواق
كالعادة بمعاملات تجلب الثراء والأمن على قادش. يقينا
لم يطرأ طارئ تتغير به قادش، وهذا حسن لأن التغيير
يقلقني، وأنا أحب عاداتي الوطيدة.

الحاكم

نعم أيها الحاكم، إن شيئا، لم يتغير حقيقة، وهذا ما نستطيع
أن نؤكدك لك نحن الفقراء. فأواخر الشهور مضبوطة،
والبصل والزيتون والخبز هي ما نقيم به أودنا، أما الدجاج
المحمر فتحن سعداء إذ نعلم أن غيرنا يأكله يوم الأحد
دواما، وهذا الصباح طن نبأ مثير في المدينة وفوق المدينة.
والحقيقة لقد اعترانا الخوف، لقد خشينا أن يتغير شيء
وأن يضطر البؤساء فجأة إلى الاقتصار في طعامهم على
الشكولاته. ولكن بفضل جهودك أيها الحاكم الصالح تم
إعلاننا بأن شيئا لم يحدث وأن آذاننا قد أخطأت السمع.
وعلى ذلك فما نحن معك مطمئنين.

رجل من الشعب

إن الحاكم سعيد بذلك، فليس في الجديد أي خير.

الحاكم

لقد أحسن الحاكم الكلام، فليس في الجديد أي خير،

قضاة البلدية



ونحن قضاة البلدية سفراء الحكمة وتجارب السنين، نحب أن نتأكد على الأخص من أن فقراءنا الطيبين لم يرسموا على ملامحهم ظلا من السخرية، فالسخرية فضيلة هدامة، والحاكم الصالح يفضل عليها الرذائل البناءة.

الحاكم : حسب يومنا أن أمر بآلا يتبدل أي شيء، فإني ملك الثبات.

سكارى الحان : نعم نعم نعم، لا لا لا . فليقطع تبدل أي شيء.
(حول نادا)
أيها الحاكم الصالح فكل شيء يدور حولنا، وفي هذا عذاب كبير. نحن نريد الاستقرار، فلتتوقف كل حركة، ولنطرح كل شيء سوى النبذ والجنون.

الجوقة
لم يتغير أي شيء، إن شيئا لا يحدث ولم يحدث أي شيء؟
فالفصول تدور حول محورها، وفي السماء اللطيفة تدور الكواكب الحكيمة التي تدين هندستها الهادئة هذه النجوم المخبولة التي تشذ عن القاعدة مراعى السماء بجداول شعرها الملتهب، وتعكر بصباحها المنذر موسيقى الكواكب العذبة، وتشيع الاضطراب في الجاذبيات الثابتة أبدا، وتتفثها لتيار عنيف من الريح في انطلاقها المسعور. تشيع الاضطراب في هذا النسق الأزلي لتجاذب الأجرام فتتأزم دوراتها حول محورها ويكون له صرير، ثم تمهد في كل مفارق الطرق في السماء لوقوع مصادمات مروعة بين الأفلاك، حقا إن كل شيء قد انسلك في نظامه والعالم يتوازن والموسم في عزه واستقراره، يا للسعادة يا للسعادة! ها هو الصيف. ماذا يهم ما تبقى، فالسعادة هي ما نفخر به.

قضاة البلدية : إذا كان للسماء عادات فاشكروا عليها الحاكم مادام هو ملك العادات. إنه أيضا لا يحب الشعور المشعثة وكل من في مملكته حسن التمشيط.

الجوقة : نحن حكماء وسنظل حكماء مادام كل شيء لن يتغير أبدا. وماذا نفعل ولنا شعور مشعثة وعيون متقدة وأصوات حادة،

إن يكن لنا من قادم فخر فبسعادة غيرنا من الناس.

السكاري حول نادا : اطرحوا الحركة، اطرحوا كل شيء، ولنمتنع عن التبديل لنمتنع عن التبديل، ولندع الساعات تُول، فنظام الحكم القائم سيمضي بلا تاريخ، وهذا الموسم المستقر هو أحب المواسم لقلوبنا لأنه أشد حرا، فهو يحثنا على الشراب.

(ولكن نغمة الإنذار المحورية في اللحن الموسيقي، بعد أن كانت تتبع لفترة في طنين مخنوق، إذا بها ترتفع فجأة وتبلغ درجة الحدة على حين تدوي دقتان مكتومتان، وفوق المنصة الخشبية في غيابة المسرح يتقدم أحد الممثلين إلى الجمهور، وهو ماض في أداء دوره بالإشارة لا باللفظ (البانتوميم) فإذا به يترنح ويسقط بين الجمع المحتشد الذي يسرع إلى التحلق حوله، لا ينطق فمه بكلمة ولا يعبر عن معنى بإشارة وساد صمت مطبق.

لحظات من الجمود، ثم يعم التدافع والتفرق. ديجو يشق الجموع فتراجع عنه ببطء حتى يتكشف له الرجل الصريع (ويقبل طبيبان يفحصان الجثة ثم يبتعدان عنها، ويدور بينهما نقاش ينم عن اضطراب شديد. ويتقدم شاب إلى أحد الطبيبين يستفسره عما حدث فيجيبه بإشارات تكرر أن شيئا قد حدث، فيزداد الشاب بتشجيع من الجمهور إلحاحا وتضييقا عليه. يلتصق به ويمسكه من تلايبه في حركة من يتوسل إليه ويستحلفه حتى تعلق شفتاه بشفتي الطبيب فإذا بصرخة تند منه وتومئ ملامحه بأنه التقط كلمة من فم الطبيب فيتراجع، وكأن الكلمة التي التقطها أكبر من فمه ولا بد له من بذل جهد كبير لكي يتخلص منها، فهو لا ينجح إلا بعد مشقة عظيمة في أن يلفظها من بين شفتيه)

(الطاعون. الجميع يجثون على الأرض، ويردد كل واحد منهم هذه الكلمة بصوت تتصاعد قوته، ويتكرر تتزايد سرعته. وإذا بهم يفرون وتتألف منهم حلقات واسعة تدور

على المسرح حول الحاكم الذي عاد إلى اعتلاء منصته.
ويشتد حركة الجمع سرعة وتدفقا وهلعا، إلى أن يعلو صوت
القسيس الشيخ، حينئذ يجمد الجميع في زمر متفرقة)

القسيس

: ها هو ذا العقاب قد وافانا والوباء القديم قد حط على
المدينة. إنه هو الذي ألقت السماء دائما أن ترسله إلى
المدن الفاسدة لتميتها عقابا لها على خطاياها المميتة،
صرخاتكم ستسحق في أفواهكم الكاذبة، وخاتم من نار
سيكوي قلوبكم، فلتصلوا الآن لإله العدل لكي يغفر. ادخلوا
إلى الكنيسة، ادخلوا إلى الكنيسة.

(يندفع نفر من الناس إلى الكنيسة، وتتوزع بقيتهم جانب
اليمن وجانب اليسار في حركة آلية، على حين يسمع
لجرس الكنيسة دقات صلاة الجنازة. وفي الجانب الثالث
المتبقي من المسرح يقف العراف ويتكلم بلهجة محايدة تمام
الحياد كأنه يقدم تقريراً إلى الحاكم)

العراف

: إن نسقا حديثا لمواقع النجوم المعادية قد ارتسم فورا على
نظام الفلك. إنه يدل وينبئ أن القحط والمجاعة والطاعون
ستعم أرضنا أيا كانت الأحوال.

(ولكن ثرثرة جماعة من النساء تعلو وتحجب كل
الأصوات)

- كان في حلقه حيوان ضخم ينضح دمه بكركرة عالية كأنها
صوت مضخة.

- كان عنكبوتا، عنكبوتا كبيرا أسود.

- أخضر اللون، كان أخضر اللون.

- بل كان سحلية من سحالي الأعشاب المائية.

- أنت لم تر شيئا، بل كان أخطبوطا في حجم طفل.

- ديجو، أين ديجو ؟
- سوف يبلغ من كثرة الموتى أن يعجز الأحياء عن دفنهم جميعا.
- وي ! لو استطعت الرحيل.
- الرحيل الرحيل.
- فيكتوريا : ديجو أين ديجو ؟
- (خلال هذا المشهد كله امتلأت السماء بالعلامات وازداد طنين نغمة الإنذار وضوحا وتوضيحا للذعر العام. يخرج رجل ذو وجه مضيء من أحد المنازل وهو يصيح: نهاية العالم في ظرف أربعين يوما. ومن جديد يوالي الذعر انتشاره والناس يرددون: «خلال أربعين يوما نهاية العالم». يأتي حراس ويعتقلون صاحب الوجه المضيء، ولكن في الناحية الأخرى ساحرة توزع العقاقير)
- الساحرة : ترنجان^(١) نعناع، شلبيه، ندى البحر^(٢)، زعتر، زعفران، وقشر ليمون وعجين اللوز، انتبهوا، انتبهوا، هذه العقاقير لا تخطئ.
- (ولكن ريحا باردة تهب حينما تأخذ الشمس في المغيب، مما يجعل الناس يرفعون رؤوسهم إلى أعلى)
- الساحرة : الريح، هذه هي الريح. إن الوباء لا يطيق الريح. سوف يتحسن كل شيء، وسترون صدق ما أقول.
- (في اللحظة ذاتها تهدأ الريح، ويرتفع طنين نغمة الإنذار إلى ذروة الحدة، وتسمع الدقتان المكتومتان الثانية أسرع ملاحقة للأولى هذه المرة. يهوي رجالان إلى الأرض وسط

(١) نبات الليمون.

(٢) نباتات عطرية ذات رائحة زكية ومزيلة للمغص.



الحشد، فيجثو الجمع على الركب ويأخذون في الابتعاد
عن جسدي الرجلين ويتراجعون القهقري، ولا يبقى معهما
إلا الساحرة، وهما مطروحان تحت قدميها، وقد بدت لكل
منهما علامة على ثنية الفخذ والرقبة. يتلوى المريضان
وتصدر منهما حركات قليلة، ثم يلفظان أنفاسهما، على
حين يهبط الليل ببطء على الجميع وهو ماض في انصرافه
تاركا الجثتين وسط المشهد.

ضوء في الكنيسة والقصر غارق في النور. ضوء في بيت
القاضي. ينتقل المشهد بالتبادل بينهما)

قاضي البلدية الأول :

إن الوباء يا صاحب الفخامة، ينتشر بسرعة تفوق جميع
تدابير الإغاثة، وقد عمت العدوى جميع أقسام المدينة على
نحو فاق ظننا، مما يدفعني إلى الاعتقاد بضرورة إخفاء
الموقف، وكتم الحقيقة عن الشعب بأي ثمن. وعلى كل في
الوقت الراهن يهاجم الوباء ضواحي المدينة وهي فقيرة
وغاصة بالسكان، ووسط تعاستنا يعتبر هذا على الأقل
أمرا مرضيا.

(مهمات تأييد في الكنيسة)

القسيس

اقتربوا ليعترف كل منكم علنا بأسوأ ما اقترف. افتحوا
قلوبكم أيها اللعناء، وليجهر كل منكم للآخر بالشر الذي
اقترفه والذي كان في نيته اقترافه، وإلا فسيخنقكم
سم الخطيئة ويقودكم إلى الجحيم، كما يفعل أخطبوط
الطاعون... وأنا من جهتي أتهم نفسي بأنني كثيرا ما
قصرت في تقديم الصدقة.

(يتقدم بعد ذلك ثلاثة من الحاضرين للاعتراف واحدا
بعد الآخر بين يدي القسيس، ويؤدي الاعتراف بالإشارات
وحدها، على حين يتتابع الحوار التالي)

(في القصر)

- الحاكم : كل شيء سوف يسوء.. الذي يضايقني أنتي كنت أريد الذهاب للصيد. إن مثل هذه الأمور تحدث حين يكون لدى المرء أعمال مهمة تنتظره.
- قاضي البلدية الأول : لا تتخلف عن الصيد من كل بد، ولو لم يكن ذلك إلا لضرب المثل، فالمدينة ينبغي أن تعلم كيف عرفت أن تقابل المحنة بوجه تعلوه السكينة والاطمئنان.
- الجميع : اغفر لنا يا إلهي ما جنته أيدينا وما لم تجنه قط.
(في بيت القاضي)
- القاضي : (القاضي يرتل الترانيم تحيط به أسرته)
إن المولى هو ملاذي وحصني، لأنه هو الذي يحميني من فخ صياد الطيور ومن الطاعون القاتل.
- الزوجة : كازادو، ألا يمكننا الخروج؟
- القاضي : لقد أسرفت في الخروج طوال حياتك يا امرأة، مما سلبنا السعادة.
- الزوجة : إن فيكتوريا لم تعد، وأخشى عليها من الغواية.
- القاضي : أنت لم تأخذك قط خشية على نفسك من الغواية فابتذلت الشرف.. ابق هنا فهذا هو البيت الهادئ وسط البلاء. لقد حسبت حسابا لكل شيء، وسوف تنتظر نهاية الطاعون ونحن متحصنون في البيت، ولن نعاني من شيء بعون الله.
- الزوجة : الحق ما تقول يا كازادو، ولكننا لسنا وحدنا، فثمة آخرون يتعذبون. وربما كانت فيكتوريا في خطر.
- القاضي : دعي الآخرين، وشأنهم، وفكري في البيت. فكري في ابنك مثلاً، وتزودي بجميع المؤن قدر طاقتك، وادفعي الثمن المطلوب، ولكن ضعيتها في المخزن يا امرأة، في المخزن. لقد حان وقت التخزين (يقرأ) المولى هو ملاذي وحصني.
(في الكنيسة يستأنفون الترانيم)



الجوقة

: ولن يكون عليك أن تخاف،
لا من رعب الليل،
ولا من السهام التي تطلق بالنهار،
ولا من الطاعون الذي يسير في الظلام،
ولا من الوباء الذي يزحف في عزّ النهار.

صوت

: ربنا ياله من رب عظيم جبار.
(ضوء على الميدان والشعب يتجول على أنغام الكوبلا)

الجوقة

: سجلت اسمك على الرمال،
وكتبت على ماء البحر،
فلم نفر إلا بالعناء،
(تدخل فيكتوريا . كشاف يوجه إلى الميدان)

فيكتوريا

: ديجو، أين ديجو ؟

امرأة

: إنه يلازم المرضى، إنه يعنى بالمرضى الذين يدعونه.

(تجري إلى طرف المسرح وتضطدم بديجو الذي يلبس
قناع أطباء الطاعون. تتراجع وقد ندت منها صرخة فزع)

ديجو

: (بلطف) هل أخيفك إلى هذا الحد يا فيكتوريا ؟

فيكتوريا

: (في صرخة) آه يا ديجو، أخيرا وجدتك. ارفع هذا القناع
وضمني إليك. ضمني إلى صدرك إلى صدرك، وهكذا
أنجو من هذا الوباء. (ديجو لا يتحرك)

فيكتوريا

: ما الذي تغير بيننا يا ديجو ؟ لقد مضت ساعات وأنا أبحث
عنك وأجري هنا وهناك خلال المدينة، وقد روعني احتمال
أن الوباء قد يصيبك أنت أيضا. وها أنت بهذا القناع،
قناع العذاب والمرض ارفعه عنك، ارفعه عنك، أتوسل
إليك وضمني إليك. (يرفع القناع) حين أرى يديك يعاودني
عطش إلى لمستهما فيجف فمي. قبلني. (لا يتحرك)

فيكتوريا : (وقد خفضت صوتها) قبلني. إني أموت من العطش. هل نسيت أننا قد تمت خطبتنا بالأمس فقط ؟ لقد انتظرت طوال الليل مطلع هذا اليوم الذي تقبلني فيه بكل قواك. أسرع أسرع...

دييجو : لقد تملكني الإشفاق على المنكوبين يا فيكتوريا.

فيكتوريا : وأنا كذلك. ولكن أول إشفاعي علينا نحن الاثنين، ولهذا بحثت عنك، وكنت أصيح في الشوارع، وأعدو نحوك وقد مددت ذراعيّ لأشبهكما بذراعيك.
(تتقدم نحوه)

دييجو : لا تلمسيني، ابتعدي.

فيكتوريا : لماذا ؟

دييجو : إني لم أعد أعرف نفسي. لم أنكص قط عن منازلة إنسان رهبة منه، ولكن هذا الذي حدث لا قبل لي بمدافعته، ولو يسلم لي الشرف، فلا نفع له عندي الآن. وأشعر بأنني فقدت إرادتي واستسلمت. (تتقدم نحوه) لا تلمسيني فريما أصبح المرض كامنا فيّ فأنقله إليك من غشيان الذهول عليّ، ولست أدري حتى كيف السبيل إلى التقاط هؤلاء الناس وإضجاعهم في فراشهم، كيف ويداي ترتجفان من شدة البشاعة وعيناي تغيمان من فرط الشفقة، (صیحات وتأوهات) ومع ذلك فهم يدعونني، كما تسمعين. يجب أن أذهب إليهم. ولكن اهتمي بنفسك، بل اهتمي بنا نحن الاثنين فمن المؤكد أن لهذا الأمر نهايته.

فيكتوريا : لا تتركني.

دييجو : سوف ينتهي ذلك الأمر. إني في ريعان الشباب، وأحبك حبا لا حد له، وكم أستبشع الموت.

فيكتوريا : (تندفع نحوه)



أما أنا فأني حية أرزق.

(يتراجع) يا للخجل يا فيكتوريا، يا للخجل !

دييجو

الخجل، لماذا الخجل؟

فيكتوريا

يبدو لي أنني خائف !

دييجو

(تسمع تأوهات يجري ديجو نحوها . الجميع يسير على
نفمة الكوبلا)

من المخطئ ومن المصيب ؟

الجوقة

فكر.

إن كل شيء في هذا العالم كذب.

ليس ثمة حق سوى الموت.

(كشاف يوجه إلى الكنيسة وقصر الحاكم، ترنيمات
وصلوات في الكنيسة وفي القصر. القاضي الأول يوجه
كلامه للشعب)

أمر من الحاكم: ابتداء من هذا اليوم، وعلى سبيل التكفير
عن هذه المحنة العامة، ولتجنب التعرض لخطر العدوى فإن
كل تجمع عام محظور، وكل الملاهي ممنوعة وكذلك...

القاضي الأول

(امرأة تبدأ في العويل وسط الجموع)

هناك. هناك. يخفون أحد الموتى، لا ينبغي تركه، ستعم منه
العفونة، عار على الناس، يجب مواراته التراب.

(هرج ومرج، يأتي رجالان ويجران المرأة)

وهكذا فإن الحاكم في وسعه أن يطمئن الأهالي على سير
الوباء الذي حط على المدينة بلا توقع، إذ يكفي أن تهب
الريح من البحر حتى ينقشع الطاعون بعون الله.

القاضي

(كلامه تقطعه الدقتان الهائلتان المكتومتان، في إثرهما دقتان
أخريان، بينما يشدد قرع جرس الجنازات سرعة ورنينا
وتتعاقب الصلوات في الكنيسة، ثم يسيطر على الجموع،
بلا منافس، صمت مرتعب يدخل في أثائه شخصان
غريبان، رجل وامرأة فيلاحقهما الجميع بنظراتهم. الرجل
ممتلئ الجسم عاري الرأس ويرتدي ثوبا من قبيل الأزياء
الرسمية، وقد رشق صدره بوسام، وترتدي المرأة كذلك زيا
رسميا، له ياقة وكمان في لون أبيض، في يدها دفتر صغير
يتقدمان ويقفان تحت قصر الحاكم ويحييان)

- الحاكم : ماذا تريدان مني أيها الغريبان ؟
الرجل : (بلهجة مهذبة رسمية) مكانك.
الجميع : ماذا ؟ ماذا يقول ؟
الحاكم : لقد أسأت اختيار هذا الوقت لطلبك، وهذه الوقاحة قد
تكلفك غاليا، ولكن لعلنا أسأنا الفهم، من أنت ؟
الرجل : إن لي ألف اسم.
القاضي الأول : أنا لا أعرف من أنت أيها الغريب، ولكن أعرف أين ينتهي
بك المطاف.
الرجل : (بهدهوء شديد) إنك تثيرني. ما رأيك أيتها الصديقة
العزيزة.
أينبغي إذن أن أقول لهم من أنا ؟
السكرتيرة : جرت العادة ألا نفعل ذلك إلا بعد مزيد من التحشم
والتلطف.
الرجل : ولكن هؤلاء السادة لا يتراخى لهم إلحاح.
السكرتيرة : ربما كانت لهم مبرراتهم. وعلى كل فنحن في زيارة، ولا بد
من الخضوع لعادات هذه الأماكن.



- الرجل : إني أفهمك، ولكن لا يشيع ذلك الاضطراب في هذه العقول الطبية ؟
- السكرتيرة : اضطرابهم أفضل من استغفالهم بلا تأدب.
- الرجل : لك قدرة على الإقناع، ولكني مازلت أخرج من بعض المعاذير.
- السكرتيرة : واحدة من اثنين.
- الرجل : إني مصغ إليك.
- السكرتيرة : تعلن اسمك أو لا تعلنه. فإذا أعلنته فسيعرفونه، وإذا لم تعلنه فلن يغيب عنهم علمهم به.
- الرجل : لقد أوضحت لي الأمر تمام الوضوح.
- الحاكم : هذا كاف على كل حال، غير أنني للمرة الأخيرة أفرض عليك قبل اتخاذ التدابير اللازمة أن تعلن اسمك ومقصدك.
- (بلهجة مازالت غير متكلفة)
- الرجل : أنا الطاعون... وأنت ؟
- الحاكم : الطاعون ؟
- الرجل : نعم. وأنا في حاجة إلى منصبك. صدقني، إني آسف لذلك ولكن أمامي أعمالا كثيرة لا بد لي من إنجازها، سأمنحك مهلة ساعتين مثلا، أيكيفيك هذا لنقل السلطة إلي ؟
- الحاكم : لقد شططت هذه المرة وجاوزت كل الحدود. سوف تعاقب على هذه الوقاحة. أيها الحراس.
- الرجل : انتظر. إني لا أريد أن أحمل إنسانا على فعل رغم أنفه، ومبدئي أن أتجنب كل عيب، وأنت على كل حال لا تعرفني ولكني أود حقا أن تتخلى لي عن منصبك من دون أن تضطرنني إلى أن آتيك ببرهان على قدراتي، أفلا تستطيع تصديقي اعتمادا على كلامي وحده ؟

- الحاكم : ليس لدي وقت أضيعه، وهذه المهزلة قد طالت كثيرا. اقبضوا على هذا الرجل.
- الرجل : لا خيار لي إذن، لا بد من الخضوع لما أكره، وأنا أضيق بهذا الأمر كله ضيقا شديدا. هل لك أيتها الصديقة العزيزة أن تشرعي في الشطب ؟
- (يمد ذراعه إلى أحد الحراس. السكرتيرة تتعمد أن يتجلى شطبها لشيء مكتوب في الدفتر. وقع الدقة المكتوبة يملأ الأسماع، يسقط الحارس على الأرض، تتقدم إليه السكرتيرة وتفحصه)
- السكرتيرة : انتظم تطبيق القواعد يا صاحب الفخامة، فالعلاقات الثلاث ها هي ذي بادية عليه (للجميع بتلطف) معنى علامة واحدة أنها تثير الشك لا اليقين، ومعنى علامتين أن المرض قد أصابكم، ومعنى العلامات الثلاث أن الشطب قد تقرر وصدر به الحكم. فالأمر كما ترون بسيط غاية البساطة.
- الرجل : آه. لقد نسيت أن أقدم لكم سكرتيرتي. وأنتم على كل حال تعرفون من هي، ولكن لا بأس فإن المرء يصادف أناسا عديدين فلا يذكرهم جميعا.
- السكرتيرة : لهم عذرهم ولا ضير، فالناس كلهم لا يغيب عنهم طويلا أن يعرفوا من أنا.
- الرجل : إن لها طبعاً راضياً كما ترون، فهي مرحلة قنوع نظيفة باطنا وظاهراً...
- السكرتيرة : ليس لي فضل في ذلك، فالعمل أسهل وسط الزهور النضرة والابتسامات.
- الرجل : نعم اعتقادك هذا، ولكن لنعد إلى موضوعنا. (موجها كلامه إلى الحاكم) ألم تر أنني أمددتك ببرهان كاف على أنني جاد في قلبي، ما لك لا تتطق بكلمة ؟ نعم. قد

أرهبتك بطبيعة الحال، ولكن ثق بأن هذا يحدث على غير هواي، كنت أفضل عقد تسوية ودية وتعاهد نقيمه على الثقة المتبادلة، يكفي لضمان ذلك أن تقول نعم وأقول نعم، واتفاق يرضي الشرف على نحو ما، وعلى كل لم يفلت بعد من قدرتك اتخاذ قرار سديد. أترى أن مهلة ساعتين كافية لك ؟

(الحاكم يهز رأسه علامة النفي)

(يستدير نحو السكرتيرة) أليس هذا مما يؤسف له ؟

الرجل

(تهز رأسها) إنه رجل عنيد. يا للعوائق.

السكرتيرة

(للحاكم). مازلت مع ذلك متشبثا بنيل رضاك، فلا أريد أن أفعل شيئا من دون موافقتك، وإلا كنت مناقضا لمبادئ، وستمضي سكرتيرتي إذن في الشطب بالقدر الذي يفضي إلى الفوز منك بموافقة عن طيب خاطر على إصلاح حين أقدم باقتراحه. هل أنت مستعدة أيتها الصديقة العزيزة ؟

الرجل

لن أترث إلا مقدار فراغي من قلبي الذي انكسر سنه، ثم سرعان ما تسير الأمور على أحسن حال.

السكرتيرة

(يتهد) لولا تفاؤلك لأصبحت مهنتي مؤلمة جدا.

الرجل

(تبري قلمها) إن السكرتيرة المثالية على يقين من أن كل خلل لا يستعصي علاجه وتسويته، ما من خطأ في حساب إلا هان إصلاحه، ما من موعد لم يتحقق إلا تيسر تعويضه، ولا مصيبة ليس لها جانب طيب، حتى الحروب ذاتها هي في بعض وجوهها نعمة، بل إن المدافن تصبح مجالا لعقد صفقات مريحة حين يسقط كل عشر سنوات امتياز استيلاء كل أسرة على قبر خاص بها على الدوام.

السكرتيرة

إن كلامك من ذهب.. هل أصبح لقلبك سن ؟

الرجل

السكرتيرة	نعم إن له سنا ونستطيع أن نبدأ .
الرجل	هيا بنا .
	(يشير إلى نادا الذي تقدم، ولكن تنفجر له قهقهة عالية شأن السكارى).
السكرتيرة	هل أستطيع أن ألفت نظرك إلى أن هذا من النوع الذي لا يعتقد في شيء. وأن هذا النوع مفيد لنا للغاية ؟
الرجل	هذا حق. لنأخذ إذن أحد القضاة.
	(يسود الذعر لدى القضاة)
الحاكم	قف.
السكرتيرة	علامة طيبة يا صاحب الفخامة.
الرجل	أي خدمة أؤديها لك أيها الحاكم ؟
	(في عجلة)
الحاكم	إذا تركت لك مكاني أنا وأهلي والقضاة فهل تسلم حياتنا؟
الرجل	بطبيعة الحال، وتلك هي العادة المتبعة.
	(يتشاور الحاكم مع القضاة ثم يستدير نحو الشعب)
الحاكم	يا شعب قادش، إنني لعلّى يقين من أنكم أدركتم الآن أن كل شيء قد تغير، ولمصلحتكم نفسها ربما كان من الأوفق أن أغادر هذه المدينة وأتركها للسلطة الجديدة التي تكشف فيها للتو، والاتفاق الذي أبرمته معها سيجنبنا ما هو أسوأ بلا شك. وهكذا فإنكم على يقين من الاحتفاظ خارج جدران المدينة بحكومة قد تصبح لكم يوما ذات جدوى. هل أنا في حاجة إلى أن أقول لكم إنني إذ أحدثكم هذا الحديث لا أخضع للقلق على سلامتي الشخصية ولكن...



- الرجل : عفووا لمقاطعتي لك. ولكن يسرنني لو أنك أوضحت علنا أنك توافق بمحض إرادتك على هذه الإجراءات المفيدة وأن الأمر يتعلق بطبيعة الحال باتفاق حر.
- (الحاكم تتجه نظرتة إلى الشعب والسكرتيرة ترفع القلم إلى فمها)
- الحاكم : لا جرم أنني أبرم هذا الاتفاق الجديد في حرية تامة. (يتمتم قليلا ويتراجع ويولي الأدبار.. تبدأ موجة الرحيل من المدينة)
- الرجل : (للقاضي الأول) من فضلك لا ترحل هكذا بسرعة، فإني في حاجة إلى رجل يتمتع بثقة الشعب وأستطيع به إعلان رغباتي.
- (القاضي الأول يتردد)
- ستقبل بطبيعة الحال (للسكرتيرة) أيتها الصديقة العزيزة.
- القاضي الأول : طبعاً طبعاً، هذا شرف كبير.
- الرجل : رائع. أما والحال كذلك فهيا يا صديقتي العزيزة، أبلغني القاضي بما ينبغي أن يعلمه هؤلاء الناس الطيبون من قراراتنا، لكي يستهلوا حياتهم وفق التنظيم الجديد.
- السكرتيرة : أمر ارتآه وأعلنه القاضي الأول ومستشاروه.
- القاضي الأول : ولكني لم أصدر أمراً بعد.
- السكرتيرة : أعفيناك من تجشم هذا العناء، وإخالك تحمد حسن حظك. إن جهازنا التنفيذي يتحمل عبء تحرير نصوص الأوامر التي يكون لك شرف التوقيع عليها.
- القاضي الأول : بلا ريب، ولكن...

السكرتيرة : هذا الأمر إذن هو بمنزلة لائحة تصدر تحقيقا لإرادة عاهلنا المحبوب، وتتضمن أسس التنظيم وبذل الإسعاف عن مروءة لمن تصيبه العدوى، وترسم القواعد وتحدد الأشخاص - مثل الملاحظين والحراس والمتكفلين بالتفويض والحادين ممن يطلب إليهم أداء اليمين إنهم ينجزون بكل دقة ما يصدر إليهم من تعليمات.

القاضي الأول : لم كل هذه الرطانة المبهمة من فضلك ؟

السكرتيرة : لكي يتعود الناس بعض الغموض، فكلما شق فهمهم سهل انقيادهم، وبعد فهذه الأوامر التي ينبغي لك أن تتادي بها في المدينة بصوت جهير واحدا بعد آخر، لكي يتيسر هضمها حتى على المحرومين من سرعة الفهم، وهؤلاء هم رسلنا، وجوهمهم السمحة تعين على تثبيت كلامهم في الذاكرة.

(يتقدم الرسل)

الشعب : لقد رحل الحاكم، لقد رحل الحاكم.

نادا : هذا حقه أيها الشعب، هذا حقه. إن الدولة هي هو، ويجب صيانة الدولة.

الشعب : الدولة كانت هو، أما الآن فهو لم يعد شيئا، ومادام قد رحل فالطاعون هو الدولة.

نادا : وما الذي يعنيكم من هذا الفرق، فسواء أكان الطاعون أم الحاكم فالدولة لاتزال هي هي.

(الشعب يتحرك باحثا عن مخارج فيما يبدو)

الرسول الأول : كل منزل مصاب ينبغي أن يميزه رسم نجمة سوداء وسط باب، محورها طوله قدم، وتزدان بهذه العبارة «نحن جميعا إخوة»، وينبغي أن تظل النجمة مرسومة حتى يعاد فتح



المنزل وإلا تعرض المخالف لعقوبة صارمة طبقاً لنص القانون. (ينسحب)

أي قانون ؟

صوت

القانون الجديد بكل تأكيد .

صوت آخر

الجوقة

كان سادتنا يقولون إنهم سيحموننا، ومع ذلك فما نحن قد تركنا لأنفسنا بلا سند، إن ضباباً قبيحاً بدأ يتكاثر في أركان المدينة الأربعة ويبدد شيئاً فشيئاً شذا الفواكه والورد، ويذهب ببهجة الموسم ويخلق مرج الصيف. إيه يا قادش، يامدينة البحر، بالأمس فقط ومن فوق المضيق أتت رياح الصحراء محملة بمزيد من الأبخرة الكثيفة لمرورها على الحدائق الأفريقية، أتت لتصيب فتياتنا بالخدر، ولكن الرياح قد توقفت وهي وحدها التي تستطيع تطهير المدينة. فكان سادتنا يقولون إن شيئاً لن يحدث أبداً. فإذا بهذا الرجل الآخر هو الذي علي حق، وإن شيئاً ما يحدث ونحن واقعون فيه، وعلينا أن نولي الأدبار ونهرب بلا تأخير قبل أن تغلق الأبواب على المحنة التي حاقت بنا.

إن جميع المواد التموينية الأساسية ستكون من الآن فصاعداً تحت تصرف الأهالي، ويعني ذلك أنها ستوزع بأنصبة متساوية وضئيلة على جميع الذين سوف يثبتون، في إخلاص، انتسابهم إلى المجتمع الجديد.

الرسول الثاني

(يغلق الباب الأول)

جميع الأنوار يجب أن تطفأ في الساعة التاسعة مساءً، ولن يسمح لأي فرد بالبقاء في مكان عام، أو التجوال في شوارع المدينة من دون تذكرة مرور صحيحة، لن تستخرج إلا في أحوال نادرة للغاية، ووفق مزاج مصدرها وحده. وكل من يخالف هذه الأحكام سيحل به عقاب صارم طبقاً لنص القانون.

الرسول الثالث

(أصوات بنبرة تتعالى حدتها)

- سوف يفلقون الأبواب.

- لقد أغلقت الأبواب.

- كلا إنها لم تغلق جميعها.

الجوقة

آه. هيا بنا نركضُ إلى الأبواب التي مازالت مفتوحة. ونحن
أبناء البحر، وعلينا أن نصل إلى هناك. هناك إلى البلد
الذي لا جدران ولا أبواب له، إلى الشواطئ العذراء، حيث
الرمال لها طراوة الشفاه، والنظر يمتد بعيدا حتى يدركه
الإعياء. لنركض ونركض حتى نلاقي الرياح. إلى البحر،
البحر آخر المكان، البحر الطليق، المياه التي تغسل، والرياح
التي تحرر.

إلى البحر، إلى البحر.

اصوات

(حركة خروج مندفعة)

الرسول الرابع

محظور حظرا شديدا تقديم المساعدة إلى أي شخص
مصاب بالمرض، اللهم إلا بإبلاغ السلطات عنه وهي التي
تتولاه، وتبلغ أفراد الأسرة الواحدة بعضهم عن بعض
واجب بصفة خاصة، وكافأ المبلغ بالحصول على نصيب
مضاعف من المواد الغذائية يسمى بالنصيب الوطني.

(الباب الثاني يغلق)

الجوقة

إلى البحر، إلى البحر، البحر سوف ينقذنا. هيهات أن
تضيره الأمراض والحروب، فكم من حكومة شهدها
وطواها، لا شيء يصدر عنه سوى حمرة الشفق وخضرة
الفسق وخير أمواجه الأبدي من المساء إلى الصباح طوال
ليال مرصعة بحشد من النجوم. إيه، لك أنت وحدة وطلاء
وتعميد بالملح. يا للوقوف فردا أمام البحر، تلفني الرياح،



وفي مواجهة الشمس أخيرا، هذا هو الخلاص من هذه
المدن المغلقة كالقبور، ومن وجوه بشر أوصدها الرعب من
لي بمن ينجيني من الإنسان وشروره المرعبة، كنت سعيدا
في قمة الموسم، قد خلى بيني وبين الثمار، إذ الطبيعة
معتدلة والصيف ودود. أحببت العالم كله يضمني أنا
وإسبانيا، ولكن ما لي لم أعد أسمع خريز الأمواج في
بحري. لقد حل محله زعيق ورعب وشتم وسب ونذالة
وجبن، ها هم أولاء إخوتي قد أكلهم العرق والهواجس
وسينوء كاهلهم وشيكا، من ذا الذي يرد لي مسابح النسيان
ومياه الهدوء وسط بحر سائلة دروبه، منطمسة آثار عبوره،
فهيا إلى البحر من قبل أن توصل الأبواب.

صوت
ابتعد بسرعة. حذار من أن تلمس هذا الذي كان قريبا من
الميت.

صوت
لقد ظهرت عليه العلامة.

صوت
تراجعوا تراجعوا...

(يضيرونه. الباب الثالث يغلق)

صوت
ربنا يا له من رب عظيم جبار.

صوت
أسرع. خذ ما نحتاج إليه، الحشية وقفص العصافير
لا تنس. مقود الكلب وأنية أوراق النعناع الطازج كذلك،
فسوف نمضغها حتى نصل إلى البحر.

صوت
أمسكوا اللص. أمسكوا اللص. لقد أخذ الغطاء المطر،
غطاء عرسي.

(الناس يتمتعون ويمسكون به ويضيرونه. الباب الرابع
يغلق)

صوت
أضف هذا من فضلك، أضف طعامنا.

صوت : لم أتزود بأي شيء للطريق. أعطني رغيفا يا أخي
وسأعطيك قيثارتي المحلاة بالصدف.

صوت : إن هذا الرغيف لأبنائي لا لهؤلاء الذين يلقبون أنفسهم
بإخوتي. القرابة درجات.

صوت : إليّ برغيف. إنني أعطي ثروتي كلها مقابل رغيف.

(الباب الخامس يغلق)

الجوقة : انصرفوا بسرعة، ليس ثمة إلا باب واحد مازال مفتوحا.
إن الوباء يسير أسرع منا، إنه يكره البحر ولا يريد أن
نعود إليه. إن الليالي هادئة والنجوم تمرق عبر السمات.
ماذا عسى أن يفعل الطاعون هنا. إنه يريد أن يبقينا تحت
جناحه، إنه يحبنا وفق أسلوبه ويريد أن نكون سعداء حسب
فهمه هو للسعادة، لا حسب فهمنا نحن لها، هي عنده
متع تفرض جبرا، وحياة دعيتها في بردها وهناء مؤبد
بلا غد. إن كل شيء ثابت محدد، ولم نعد نشعر فوق
شفاهنا بطراوة الرياح الخوالي.

صوت : أيها القسيس لا تتركني، إنني من مساكينك.

(القسيس يهرب)

الجوقة : يا للتعاسة يا للتعاسة! ببقينا وحدنا نحن والطاعون،
لقد انغلق آخر باب ولم نعد نسمع شيئا. البحر من بعد
أصبح نائيا، هيهات أن يطال. نحن الآن وسط الآلام،
وعلينا أن ندور وندور في هذه المدينة العتيقة التي حيل
بينها وبين أشجارها وشطآنها، وأوصدت من حولها أبواب
عالية ملساء، وعلاها زعيق جموع متزاحمة صاخبة، ها
هي ذي قادش قد أصبحت أخيرا حلبة مصارعة يتقاسمها
من الألوان الأسود والأحمر حيث تتم شعائر قتل الضحايا.
أيها الإخوة، إن تلك المحنة أكبر من الذنب الذي اقترفناه،



ونحن لا نستحق هذا السجن. إن قلبنا لم يكن طاهرا ولكنا
كنا نحب الخليفة وفصول الصيف منها، وكان ذلك خليقا
بأن يقسم لنا النجاة. إن الرياح معطلة والسماء خاوية.
سوف نلتزم بالصمت مدة طويلة، ولكن للمرة الأخيرة وقبل
أن تغلق أفواهنا تحت كمّات الرعب سوف نطلق صرخة
في الصحراء.

(تأوهات وصمت، ولا يتبقى من الأوركسترا إلا صوت
أجراسه. أزيز المذنب يعود في هدوء. في قصر الحاكم
يظهر من جديد الطاعون والسكرتيرة. السكرتيرة تتقدم
وهي تشطب اسما عند كل خطوة وحركاتها تتعاقب وفق
دقات من الطبول. نادا يضحك ساخرا، وتمر أول عربة
لنقل الموتى ويسمع لعجلاتها صليل. الطاعون ينتصب
في قمة الديكور ويأتي بإشارة. كل شيء يتوقف، الحركة
والضجيج)

(الطاعون يتكلم)

الطاعون

لا سيادة هنا لأحد غيري، هذا أمر واقع فهو إذن حق،
ولكنه حق لا يقبل المناقشة، وعليكم أن تروضوا أنفسكم
على التكيف وفقه. على كل حال حذار من أن يخطئ ظنكم،
قلت إنني رب السيادة هنا، وقد يكون من الأصح أن أقول
إنني رب الفعل والتنفيذ. أما أنتم أيها الإسبان فلکم مزاج
تشويه مسحة من الرومانسية. فالصورة التي ستخلعونها
عليّ هي صورة ملك أسود القلب أو صورة حشرة ضخمة،
لأنكم تهيمون بالمواقف التي تثير الشجن، وهذه هي
شهرتكم. نعم، إنني لم أتخذ صولجانا بل اتخذت هيئة أدنى
الضباط رتبة، هذه هي الوسيلة التي ألجأ إليها لإغاضتكم،
إذ من الخير بقاؤكم في غيظ، أنتم الآن لاتعرفون شيئا، كل
ما سيرد عليم جديد ينبغي تعلمه لأول مرة، ستعلمون أن

أظفار ملككم سوداء، وأن زيّه الرسمي محكم وأنه لا يتربع على عرش، بل يشغل مقرا للقيادة، وأن قصر الملك ثكنة وخيمة صيده ساحة قضاء. لقد أعلنت حالة الطوارئ وبدأ تنفيذ الأحكام العرفية.

من أجل هذا أسترعي انتباهكم لما أقوله الآن. إنني حين أفد يرحل الشجن، فالشجن محظور هو وهدهدة تخيلات أخرى مماثلة، كالاجتراح السخيف للوعة على الهناء وارتضاء العشاق بأن تنطق وجوههم بالغباء والاستسلام في أنانية للاستغراق في تأمل مشاهد الطبيعة، وكذلك نشوة السخرية الجارحة. بدلا من هذا كله أتيت لكم بالنظام الجديد وسوف يضايحكم أول الأمر ولكن ستبينون أن نظاما وثيقا خير من شجن مرذول. ولكي أضرب لكم مثلا على هذه الحكمة البديعة سأبدأ بفصل الرجال عن النساء، وسيكون لهذا الفصل قوة القانون.

(يبدأ الحرس في فصل الرجال عن النساء تنفيذا لأمره)

انقضى عهد الهزل وآن اليوم أوان الجد، أظن أنكم أدركتم ما أعنيه، ابتداء من الليلة سوف تتعلمون كيف تموتون وفق نظام ثابت. كنتم تموتون حتى اليوم وفق عرف إسبانيا، كيفما اتفق أو على سبيل التجربة كما يقال، كنتم تموتون لأن طقسا حارا أعقبه طقس بارد، لأن بغالكم زلت، لأن سلسلة جبال البرانس بدت ساخرة في غلالاتها الزرقاء لأن نهر الوادي الكبير دأب في الربيع على اقتصاص الوحدة، لأن ثمة بلهاء يعمدون إلى القتل طلبا لكسب، أو دفاعا عن الشرف، على حين أن القتل يصبح أكثر تأنقا إذا كان لمجرد السرور بسداد منطق يقتضيه. نعم كنتم لا تحسنون لقاء الموت، فيكم من يموت هنا، ومن يموت هناك، هذا في فراشه وذاك في حلبة المصارعة، نعم كان هذا هو الطيش بعينه، من حسن الحظ أن هذه الفوضى ستخضع



للائضباط، فلم يعد ثمة سوى مية واحدة للجميع، ووفق ترتيب مسجل في قائمة. سيكون المرجع إلى بطاقة معدة لكل واحد منكم، ولن يكون المرجع إلى نزوة طارئة.

لقد أصبح القدر منذ الآن حكيما وجلس إلى مكتبه. ستندرجون في قوائم الإحصاء الشامل، وهكذا، يكون لوجودكم نفع ما، ذلك أنه قد فاتني أن أذكر لكم أنكم ستموتون، فهذا أمر مفروغ منه. ولكنكم ستموتون بعد موتكم، أو حتى قبل موتكم. فهذا أدعى إلى النظافة وتدبير يقضي به النظام. ولتكن إسبانيا هي همنا الأول. الشرط إذن في مية طيبة هو وقوفكم في الصف، فإذا أطعتم نلتهم رضاي، ولكن حذار من الأفكار الهوجاء ومن غليان النفوس كما تقولون، من ضروب من الحمى الخفيفة التي تتفجر منها ثورات عنيفة، لقد ألغيت الرخص كلها وأحلت المنطق الصارم محلها، فأنا أكره الإخلال بالمساواة وحكم العقل. سيسودكم التعقل إذن ابتداء من اليوم، ومعنى هذا أنكم ترضون برسم علامات عليكم إذا رسمت في أعلى الفخذ كان عليكم أن تحملوا تحت الإبط علنا شكل نجمة ترمز إلى الدم، وتدل على أنكم في عداد المرشحين للإصابة بالعدوى القاتلة. أما الآخرون ممن يحملون أنفسهم على الاعتقاد أن الأمر لا يعنيهم فليقفوا واحدا وراء الآخر خلف صف الناس المنتظرين فتح أبواب حلبات المصارعة يوم الأحد، وينبغي عليهم الابتعاد عنكم أنتم الذين علقت بهم الشبهة، ولا تشب قلوبكم مرارة لنفورهم منكم، فهذا أمر يخصهم ولا يخصكم، فهم أيضا مدرجون في القائمة، ولن يفلت مني إنسان، فالجميع في اعتباري قد علقت بهم الشبهة، وهذه هي أوفق بداية.

هذا لا يمنع الضعف أمام العواطف، فأنا أحب الطيور وبشائر زهور البنفسج وأفواه العذارى الرطبة، وأغتتم هذه

المتع بين الحين والحين، ففيها استرواح للنفس. لاجرم أنني
رجل مثالي فإن قلبي... ولكن حسبي فإني أشعر بأنني
ملت إلى الرقة واللين، ولا أريد أن أتمادى في هذا الميل.
خلاصة القول أنني جئتكم بالصمت والنظام والعدالة
المطلقة، ولا أسألكم شكرا على ذلك فإن الذي أفعله لكم
تقضى به طبيعة الأمور.

ولكني أصر على ضرورة مساندتي بمساهمتكم الفعالة. إن
عهد حكومتي قد بدأ.

(ستار)

“ “ “

القسم الثاني



(ميدان في قادش، من ناحية الحديقة مقر حارس المقبرة، من ناحية الرحبة رصيف البحر، بالقرب منه يقوم بيت القاضي.

لدى فتح الستار يعمد اللحادون، وهم في ثياب المسجونين، إلى جمع بعض الجثث. يسمع صليل عربة نقل الموتى من خلف الكواليس، ثم تدخل العربة وتتقف وسط المشهد، ويسرع المساجين في تعبئتها، ثم تسير نحو مقر الحارس، وما تكاد تقف أمام المقبرة حتى ينبعث صوت موسيقى عسكرية، وينفتح شق من بوابة مقر حارس المقبرة فتدخل جموع الناس منه. مقر الحارس يشبه الجانب الذي تعلوه سقيفة في فناء مدرسة، السكرتيرة تتربع على منصة عالية، من تحتها صف من المناضد كالتى توزع من فوقها بطاقات التموين. ومن وراء منضدة يجلس القاضي الأول بشاربه الأشيب. وقد أحاط به نفر من الموظفين. يرتفع رنين الموسيقى، وفي الناحية الأخرى يدفع الحراس الجموع أمامهم ويسوقونهم إلى مقدمة المشهد ويخرجون بهم في مقر حارس المقبرة، وقد فصلوا الرجال عن النساء. يضاء وسط المشهد، ويرى الطاعون في شرفة قصره يصدر أوامره إلى عمال مختفين، لا يتبين منهم سوى صوت هرجلتهم من حول المشهد)

الطاعون

: يا هؤلاء، هيا أسرعوا، كل عمل يسير ببطء في هذه المدينة. هذا الشعب لا حق له في العمل، إذ يحب الفراغ والتبطل وهذا أمر واضح. أما أنا فلا أتصور عقد الأذرع على الصدور إلا في الثكنات وطوابير الانتظار. وهذا النوع من الفراغ لا بأس به، إذ يسترخي عليه القلب والساقان، إنه فراغ لا تتأتى الاستعانة به، هيا، ولنتم تشييد البرج الذي يلزمني، فإن المراقبة لم تنتظم بعد، أقيموا من حول المدينة سياجا من قوائم حديدية لها رؤوس مدببة شائكة. أما

ربيبي أنا فهو براعم ورد من الحديد، أوقدوا الأفران التي
أنذرتكم بها، فنييرانها هي من معالم أفراحنا. أيها الحراس
ارسموا نجمتنا على أبواب المنازل التي ستشغل بالي، أما
أنت أيتها الصديقة العزيزة فعليك البدء في إعداد قوائمنا
وتهيئة شهادات البقاء في قيد الحياة.

(يخرج الطاعون من الجانب الآخر)

(وهو الناطق بلسان المحيطين به من زمريته) شهادة بقاء في
قيد الحياة، ما فائدتها ؟

الصيد

ما فائدتها، كيف تستطيع لكي تعيش حياتك أن تستغني
عن شهادة ببقائك في قيد الحياة ؟

السكرتيرة

حتى الآن كنا نعيش على أحسن حال من دون شهادة.

الصيد

ذلك لأنكم لم تكونوا محكومين، أما الآن فقد أصبحتم
كذلك. والمبدأ الأعلى لحكومتنا هو بالذات أن الموتى
في حاجة دائمة إلى شهادة. قد يتأتى لك الاستغناء عن
الخبز وعن النساء، ولكن لا استغناء لك عن شهادة قانونية
تتضمن، إثبات أي أمر من الأمور.

السكرتيرة

منذ ثلاثة أجيال وأسرتي تلقي الشباك، والعمل يسير على
خير ما يرام من دون ورقة واحدة مكتوبة، وأقسم لك على
ذلك.

الصيد

ونحن جزارون أبا عن جد، ولكننا نذبح الخراف لا نستعين
بأي شهادة.

صوت

لقد كنتم تعيشون في فوضى مطبقة، هذا كل ما في الأمر،
ولتلاحظوا أننا لا اعتراض لنا على المجازر بل نرحب
بها، وكنا أدخلنا عليها نظاما محكما للمحاسبات وهذه
هي ناحية تفوقنا. أما عن الصيد الوفير برمي الشباك
فسترون أن لنا عليه قدرة رائعة. سيدي القاضي الأول.
هل لديك الاستثمارات؟

السكرتيرة



- القاضي الأول : ها هي ذي.
- السكرتيرة : أيها الحراس، تفضلوا بمساعدة السيد على التقدم.
- (يساعدون الصياد على التقدم)
- القاضي الأول : (يقرأ)
- الاسم ولقب الأسرة والصفة.
- السكرتيرة : لتعبر البيانات التي تعد من قبيل تحصيل الحاصل، فإن السيد سيملاً المسافة البيضاء أمام هذه الأسئلة.
- القاضي الأول : سيرة حياتك الذاتية...
- الصياد : أنا لا أفهم.
- السكرتيرة : ينبغي أن تبين هنا الأحداث المهمة في حياتك. تلك وسيلة التعرف عليك.
- الصياد : إن حياتي ملك لي، وهذه أمور خاصة لا تهم أحدا.
- السكرتيرة : أمور خاصة، تلك كلمات لا معنى لها عندنا، الأمر يتعلق طبعاً بحياتك العامة وهي على كل الحياة الوحيدة المصرح لك بها. سيدي القاضي انتقل إلى التفاصيل.
- القاضي الأول : متزوج ؟
- الصياد : سنة ١٩٣١.
- القاضي الأول : أسباب القرابة ؟
- الصياد : أسباب ؟ إن دمي يفور ويكاد...
- السكرتيرة : منصوص على هذا السؤال في القائمة، وهذه وسيلة ناجحة لكي يصبح من العلم الذي يملكه الجميع، فكل ما ينبغي ألا نعهده منذ الآن علماً مملوك لصاحبه وحده.
- الصياد : لقد تزوجت لأن هذا هو ما يفعله المرء حين يكون رجلاً.
- القاضي الأول : مطلق ؟
- الصياد : كلا، أرمل.

- القاضي الأول : تزوجت ثانية ؟
- الصيد : كلا .
- السكرتيرة : لماذا ؟
- الصيد : (مولولا)
- السكرتيرة : كنت أحب زوجتي .
- الصيد : أمر غريب . لماذا ؟
- السكرتيرة : أفي قدرة كل إنسان أن يدلي بسبب لكل تصرف له ؟
- الصيد : نعم، في مجتمع حسن التنظيم .
- القاضي الأول : سوابق ؟
- الصيد : ماذا أيضا ؟
- السكرتيرة : هل حكم عليك للسطو أو للحنث بالقسم أو لهتك عرض ؟
- الصيد : كلا .
- السكرتيرة : رجل شريف، وكان هذا ظني بك . سيدي القاضي الأول .
- أضف عبارة : يراقب .
- القاضي الأول : مشاعرك الوطنية .
- الصيد : لقد كنت دائما أخدم مواطني، ولم أترك قط فقيرا يمضي من دون أن أقدم له سمكة لا بأس بها .
- السكرتيرة : هذه الطريقة في الرد ليست مصرحا بها .
- القاضي الأول : آه هذا السؤال يمكنني شرحه، فإن المشاعر الوطنية هي كما تعلم طبعاً من اختصاص مناصبي . الغرض من السؤال أن نعرف هل أنت أيها الرجل من هؤلاء الذين يحترمون النظام القائم .
- الصيد : نعم حين يكون عادلاً ومعقولاً .
- السكرتيرة : أصبحت موضع شك، أكتب أن المشاعر الوطنية مشكوك فيها واقراً السؤال الأخير .



- القاضي الأول : (وهو يفك الخط بصعوبة)
أسباب وجودك ؟
- الصيد : أُمي عاهرة لو كنت أفهم شيئاً في هذه اللغة.
- السكرتيرة : معنى هذا أن عليك أن تقدم الأسباب التي تجعلك في قيد الحياة.
- الصيد : الأسباب. أي أسباب تريد أن أجدها ؟
- السكرتيرة : أفرايت. أن الشك كان على حق ؟ خذ بالك ياسيدي القاضي. فإن الموقع أدناه يعترف بأن وجوده لامبرر له، وهذا سيطلق يدنا بحرية أكثر حين يجيء دوره، وأنت أيها الموقع أدناه يحسن بك أن تدرك أن شهادة الوجود في قيد الحياة التي ستسلم مؤقتة ولها نهاية.
- الصيد : مؤقتة أو غير مؤقتة، أعطني إياها حتى أعود أخيراً إلى بيتي حيث ينتظرونني.
- السكرتيرة : بكل تأكيد. ولكن قبل ذلك يجب تقديم شهادة صحية تصرف لك بعد بعض الإجراءات الشكلية في الدور الأول إدارة الشؤون الجارية، مكتب حالات الانتظار والقسم المساعد.
- (يخرج. تصل عربة الموتى في هذه الأثناء إلى باب المقبرة ويؤخذ في تفريغها، ولكن نادا يخرج من العربة مولولاً وهو مخمور)
- نادا : ولكن بما أنني أقول لكم إنني لست ميتاً.
- (يحاولون إعادته إلى العربة، يهرب ويدخل إلى مقر حارس المقبرة)
- نادا : ماذا دهاكم. ولو كنت قد مت لما خفي موتي. (يلحظ السكرتيرة ويوجه إليها كلامه) آه عفوا.
- السكرتيرة : لا عليك. اقترب.

- نادا : لقد حملوني في عربة الموتى. وكل ما في الأمر أنني أفرطت في الشرب، قصدت به المحو.
- السكرتيرة : محو ماذا ؟
- نادا : محو كل شيء يا فتاتي، فكلما عم المحو حسن الحال، فإذا تم محو كل شيء فتلك هي الجنة، ولا أبالي بمحو العشاق، فأني أمقتهم، وحين يسировون أمامي أبصق عليهم، على ظهورهم بطبيعة الحال لأن فيهم من لا تبرا لهم ضغينة، ولا بالأطفال فإنهم جنس لعين، ولا بالزهور فهي تطالعنا ببلاهة، ولا بالأنهار فهي متشعبة بقصد لا تتحول عنه. هيا بنا نمحو كل شيء، كل شيء، هذه هي فلسفتي، فليحيَ العدم إذن، فلا شيء موجود غيره.
- السكرتيرة : وكيف يمكن محو كل ذلك ؟
- نادا : بالشراب، الشراب حتى الموت فيختفي كل شيء.
- السكرتيرة : هذه خطة رديئة ولنا خطة أفضل. ما اسمك ؟
- نادا : عدم في عدم.
- السكرتيرة : ماذا قلت ؟
- نادا : عدم في عدم.
- السكرتيرة : إني أسألك عن اسمك.
- نادا : هذا هو اسمي.
- السكرتيرة : شيء جميل. فمثل هذا الاسم يتيح اشتراكنا معا في أداء العمل كله. تقدم إلى هذه الناحية. ستكون موظفا في مملكتنا.

(يدخل الصياد وتوالي السكرتيرة حديثها)

سيدي القاضي، صديقنا عدم في عدم، أطلعه من فضلك على سير الأمور، على حين تقومون أنتم أيها الحراس ببيع شاراتنا (تتقدم نحو ديجو) صباح الخير. هل لك في شراء إحدى الشارات ؟



- ديجو : أي شارة تلك ؟
- السكرتيرة : بطبيعة الحال شارة الانتماء للحكم الجديد الذي أعلنه الطاعون بلسانه عليكم (فترة صمت)، ومع ذلك أنت حرّ في رفضها، إنها لا تفرض على الناس جبرا .
- ديجو : إذن فأنا أرفض شراءها .
- السكرتيرة : حسن جدا (تتجه نحو فيكتوريا) وأنت؟
- فيكتوريا : أنا لا أعرفك .
- السكرتيرة : عال العال. غير أنني أنبهك إلى أن من يرفض حمل الشارة سيضطر إلى حمل غيرها .
- ديجو : أي شارة إذن ؟
- السكرتيرة : حسن، شارة من يرفضون حمل الشارة. وهكذا فلأول وهلة يعلم المرء من أمامه .
- الصيد : اسمحي لي بكلمة ...
- السكرتيرة : (تستدير نحو ديجو وفيكتوريا) إلى اللقاء قريبا (للصيد) ماذا تريد ثانية؟
- الصيد : (بغضب مطرد) إنني قادم من الدور الأول، وقد أجابوني بأنه ينبغي لي أن أعود إلى هنا لكي أحصل على شهادة البقاء في قيد الحياة التي بدونها لا يستطيعون إعطائي الشهادة الصحية .
- السكرتيرة : هذا أمر كلاسيكي .
- الصيد : ماذا ؟ كلاسيكي ؟
- السكرتيرة : نعم، هذا يدل على أن هذه المدينة بدأت تخضع لإدارة حسنة، إن اقتناعنا أنكم مذبذبون، مذبذبون لكونكم محكومين بطبيعة الحال، ولذا يجب أن تشعروا أنتم أنفسكم بأنكم مذبذبون، ولن تعهدوا في أنفسكم هذا الشعور إلا إذا شعرتم أولا بالتعب. إذن فنحن نتعبكم، هذا كل ما في الأمر. وحين يرضيكم التعب يسير ما تبقى من الأمر تلقائيا .

- الصيد
هل لي أن أحصل على الأقل على هذه الشهادة المباركة
بأنني ما زلت في قيد الحياة ؟
- السكرتيرة
من حيث المبدأ لا تستطيع الحصول عليها مادمت في حاجة
أولا إلى الشهادة الصحية للحصول على شهادة البقاء في
قيد الحياة. إذن فلا مخرج في ظاهر الأمر.
- الصيد
وإذن ؟
- السكرتيرة
بقي أن إرضاءك أصبح معلقا بمزاجنا وحده، وهو سريع
التقلب ككل مزاج هوائي، إذن سنعطيك هذه الشهادة منحة
استثنائية، غير أنها بكل بساطة ليست سارية المفعول إلا
لأسبوع واحد، بعد أسبوع سنرى.
- الصيد
سترين ماذا ؟
- السكرتيرة
سنرى ما إذا كانت ثمة ضرورة لتحريرها ؟
- الصيد
وإذا لم تجدد ؟
- السكرتيرة
مادام بقاؤك حيا سيصبح غير مضمون بشهادة فإننا
سنلجأ في أغلب الأمر إلى الحذف، سيدي القاضي أعد
الشهادة من ثلاث عشرة نسخة.
- القاضي الأول
ثلاث عشرة ؟
- السكرتيرة
نعم، واحدة لصاحب الشأن واثنى عشرة لحسن سير
العمل. (يضاء وسط المشهد)
- الطاعون
ابدأوا الأعمال الكبرى التي لا جدوى منها، وأنت أيتها
الصديقة العزيزة أعدي قوائم توازن بين الذين سنعد
لترحيلهم والذين سنضعهم في معسكرات الاعتقال،
واستعجلي تحويل الأبرياء إلى مذنبين حتى تصبح اليد
العاملة كافية. لا ترحيل لمن له قيمة مهمة، سوف ينقصنا
الرجال بكل تأكيد. أين التعداد ؟
- السكرتيرة
يجري إعداده. وكل شيء يسير على ما يرام، يبدو لي أن
هؤلاء القوم البسطاء قد فهموا ما قلناه لهم.



- الطاعون : ما أسرع إفراطك في الميل إلى الرقة أيتها الصديقة العزيزة، ولك حرص على أن يكون كلامك مفهوماً وهذا خطأ في مهنتنا، هؤلاء القوم البسطاء - كما تقولين عنهم - لم يفهموا شيئاً بطبيعة الحالة. وليس هذا بالمهم، إنما ألزم اللزوم لا أن يفهموا بل أن يجهز بعضهم على بعض، لقد بهرني هذا التعبير الذي نطقت به عفواً، إذ له معنى سديد.
- السكرتيرة : أي تعبير تعني ؟
- الطاعون : أن يجهز بعضهم على بعض، هيا أيها الناس فليجهز أحدكم على الآخر، آه يالها من وسيلة مبتكرة لتحقيق الغرض.
- السكرتيرة : وسيلة رائعة.
- الطاعون : رائعة، فيها كل الغناء، تخيل صورة الإجهاز، وهو تخيل يرقق القلب، ثم تصور كيف أن من هو الضحية يساهم نفسه في الإجهاز عليه. هذا هو لكل حكومة صالحة هدفها ودعامتها.
- (ضوضاء في غيابة المسرح)
- الطاعون : ما هذا ؟
- السكرتيرة : إنهن النساء اللاتي تملكن الهياج.
- الجوقة : هذه لديها ما تقوله.
- الطاعون : تقدمي.
- المرأة : (تتقدم)
- أين زوجي ؟
- الطاعون : حسن، فلننظر في هذا أيضاً، إنه خلة قلب الإنسان كما يقولون. هذا الزوج.
- ماذا حدث له ؟
- الزوجة : لم يعد إلى البيت.
- الطاعون : هذا أمر كثير الحدوث. لا تقلقي، فقد وجد فعلاً سريراً.

- المرأة : هذا رجل يحترم نفسه.
- الطاعون : بطبيعة الحال إنه العنقاء بين الطيور. شوفي شغلك أيتها الصديقة العزيزة.
- السكرتيرة : الاسم واللقب.
- المرأة : جالفي، أنطونيو
- (السكرتيرة تنظر في مفكرتها، وتهمس في أذن الطاعون)
- السكرتيرة : حسن. لك أن تسعدي. إن له حياة آمنة.
- المرأة : أي حياة ؟
- السكرتيرة : حياته في القصر.
- الطاعون : نعم. فقد قمت بترحيله إلى القصر مع آخرين كانوا يثورون وأردت إنقاذ حياتهم.
- الزوجة : (مراجعة) ماذا فعلت ؟
- الطاعون : (بغضب عصبي شديد)
- لقد شددت بعضهم إلى بعض وضغطتهم لكيلا تبقى إلا خلاصتهم. كانوا يعيشون حتى الآن في تشتيت ومجون. أما الآن فلا ميوعة بل قدر أكبر من الصلابة. إنهم ينضغطون للفوز بخلاصتهم.
- الجوقة : ياللبؤس ! بؤسا لنا !
- الطاعون : الزموا الصمت، ولا تبق واحدة منكن في بطالة. عليكن بعمل ما، اشغلن أنفسكن (وقد سرح ذهنه) إنهم يجهزون، إنهم ينشغلون، إنهم ينضغطون.. إن اتباع قواعد النحو في اللغة غنم جميل. إذ يكون له نفع في جميع الأحوال. (إضاءة سريعة على مقر حارس المقبرة حيث يجلس نادا مع القاضي وأمام صنوف ممن سادهم التنظيم)
- رجل : لقد اشتد الغلاء وأصبحت الرواتب غير كافية.
- نادا : كنا نعلم ذلك، وها هي ذي الجداول القياسية للرواتب الجديدة قد تم إعدادها.

- الرجل : ماذا ستكون النسبة المئوية للعلاوات.
- نادا : (يقرأ)
- الأمر غاية في البساطة: الجدول القياسي رقم ١٠٨ قرار إعادة تقسيم المرتبات الأصلية والفرعية في جميع الوزارات يقضى بإلغاء مرسوم أول الدرجة، ويحدد بلا قيد أو شرط الانتقال بين الدرجات، ويباح لها بلوغ الحد الأقصى لمربوطها الذي لم يتحدد بعد، أما الدرجات بعد طرح العلاوات التي تمت الموافقة عليها سوريا بمقتضى الجدول رقم ١٠٧ فتحدد مرتباتها وفقا لأول مربوط لها بغير نظر إلى قواعد التنسيق المقررة للوظائف.
- الرجل : ولكن كم تكون العلاوة وفق هذا الكلام ؟
- نادا : العلاوة ستتقرر فيما بعد، والجاري تطبيقه اليوم هو جدول قياس للمرتبات وسنضيف إليه جدولا آخر، هذا هو كل ما في الأمر.
- الرجل : ولكن ما نفع هذا الجدول ؟
- نادا : (صائحا) أن تأكلوه وتشربوا ماء.
- (يتقدم رجل آخر)
- أنت تريد فتح متجر، فكرة بديعة لعمرى. حسن، ابدأ بملء هذه الاستمارة واغمس أصابعك في هذا الحبر وابصم به. تمام.
- الرجل : أين أمسح يدي ؟
- نادا : ليس هناك مكان لمسح الأيدي، لأن التنظيم لم يرد به نص تحديد هذا المكان.
- الرجل : ولكن لا يمكن أن أبقى بيد ملوثة هكذا.
- نادا : ولم لا ؟ وعلى كل حال ماذا يهمك من هذا، إذ لم يعد لك الحق في لمس زوجتك، وفوق ذلك في هذا خير لمن كان في مثل حالتك.

- الرجل : كيف يكون فيه خير ؟
- نادا : نعم إن في ذلك إذلالا لك، إذن فهو خير، ولكن لنعد إلى متجرك، أفضّل الاستفادة بالمادة ٢٠٨ من الباب الـ ٦٢ من النشرة السادسة عشرة التي ورد بها خامس تنظيم للقواعد العامة، أم بالفقرة ٢٧ من المادة ٢٠٧ من النشرة الخامسة عشرة التي تعدّ تنظيما للحالات الفردية.
- الرجل : ولكني لا أعرف هذا ولا ذاك من تلك الأحكام.
- نادا : بكل تأكيد أيها الرجل، أنت لا تعرفها. ولا أنا أيضا. ولكن مادام لا بد من اتخاذ قرار فسوف نجعلك تستفيد من الاثنين معا.
- الرجل : هذا فضل كبير يانادا، وإني أشكرك.
- نادا : لا تشكرني، ذلك لأنه يبدو أن إحدى هذه المواد تعطيك الحق في أن يكون لك مكانك، أما الأخرى فتسلبك حق بيع أي شيء فيه.
- الرجل : ما هذا ؟
- نادا : النظام.
- (تأتي امرأة يملكها الفزع)
- نادا : ماذا هناك أيتها المرأة ؟
- المرأة : لقد احتلوا منزلي.
- نادا : حسن.
- المرأة : وقد أعدوا فيه مكاتب إدارية.
- نادا : أمر طبيعي.
- المرأة : ولكنني أصبحت شريفة في الطرقات، وقد وعدوا بتوفير مسكن لي.
- نادا : أنت ترين أنهم فكروا في كل شيء.
- المرأة : نعم، ولكن لا بد من تقديم طلب يأخذ مجراه، وفي انتظار ذلك سيبقى أطفال في الشارع.



- نادا وهذا مبرر أكبر لتقديم طلبك. املئي هذه الاستمارة.
- المرأة (تأخذ الاستمارة) ولكن هل سيسير الطلب بسرعة ؟
- نادا يمكن أن يسير بسرعة بشرط تقديم مبرر عاجل.
- المرأة ما هذا ؟
- نادا مستند يثبت أن الأمر عاجل بالنسبة إليك، لكيلا تظلي في الطريق.
- المرأة ليس لأطفالي سقف يستترهم، أهنالك ما هو أدعى إلى الاستعجال من منحهم هذا المأوى؟
- نادا لن يعطوك مسكنا بحجة أن أطفالك في الطريق، ولكن سيعطونك مسكنا لو قدمت شهادة.. الأمران لا يستويان.
- المرأة مثل هذا الكلام يستعصي عليّ فهمه. إن الشيطان يتكلم هكذا ولا يفهمه أحد.
- نادا ليس الأمر محض مصادفة أيتها المرأة. إن الأمر يتعلق هنا بالعمل من أجل ألا يفهم أحد أحدا مع استعمال اللغة نفسها. وأستطيع أنؤكد لك أننا نقرب من اللحظة المثلى التي يتكلم فيها الجميع من دون أن يكون لكلامهم صدى، والتي تتصادم فيها اللغتان المستعملتان في هذه المدينة وتحطيم إحداهما الأخرى في إصرار يجعل كل شيء يتجه حتما نحو النهاية وهي الصمت والموت.
- المرأة :
- معا العمل هو أن يأكل الأطفال حتى الشبع، وألا يشعروا بالبرد. العدالة هي أن يعيش صفاري. لقد ولدتهم فوق أرض المرح وقدم البحر مياه تعميدهم، وهم في غير حاجة إلى ثروات أخرى، ولست أطلب شيئا لهم إلا الخبز اليومي ونوم الفقراء. وهذا لا شيء، ومع ذلك فهذا بالذات هو ما ترفضون إعطاءه، وإذا رفضتم الخبز للفقراء فليس ثمة ترف أو كلام معسول أو وعود غامضة تصفح لكم أبدا.

- نادا : اختاري أن تعيشي جاثية على ركبتيك بدلا من أن تموتي واقفة لكي يجد الكون نظامه مقيسا بأذرع المشانق يتقاسمه بشر هداؤا في قبورهم ونمل يعيش بعد اليوم حياة طيبة، كون هو جنة غلاة المتطهرين لا مراعي فيها ولا خبز، تدور فيها شرطة من الملائكة لها أجنحة كبيرة بين السعداء الذين أكلوا حتى الشبوع من الورق والوصفات المغذية الساجدين أمام رب سني يحطم كل شيء وقد عقد العزم يقينا على تبديد الهذيان القديم، هذيان عالم جاوزت متعته كل الحدود.
- نادا : ليحيَ العدم. لم يعد أحد يفهم أحدا. نحن في اللحظة المثلى.
- دييجو : (إضاءة في الوسط. يلوح في أحد الجوانب أكواخ وأسلاك شائكة ومراصد وغيرها من معالم القهر والعداء. يدخل ديجو وهو يرتدي القناع ويبدو من هيئته كأنه كان يفر من مطاردة يلوح معالم القهر والعداء)
- دييجو : (موجها كلامه للجوقة)
- أين إسبانيا ؟ أين قادش ؟ إن هذا الديكور لا يمت إلى أي بلد .. إننا في عالم آخر لا يستطيع الإنسان أن يعيش فيه. لماذا أنتم صامتون ؟
- الجوقة : إننا خائفون. آه لو هبت الريح.
- دييجو : وأنا أيضا خائف. وحسن أن ينفس المرء عن خوفه بالصراخ. اصرخوا وسوف ترد عليكم الريح.
- الجوقة : كنا شعبا فأصبحنا حشدا، كنا ندعى مجاملة للضيافة فأصبحنا نستدعى سحبا للتحقيق، كنا نتبادل الخبز واللبن، واليوم أصبح يخصص لنا تموين بالبطاقات. إننا ندبذب بالأقدام. (يدبذبون بالأقدام) نحن ندبذب بالأقدام ونقول إن أحدا لن يستطيع عمل شيء لأحد وإنه لا بد من الانتظار في مكاننا في الصف الذي حدد لنا، اختفت



إسبانيا . لندبدب بالأقدام . لندبدب بالأقدام . إيه أيها
الآلم، إننا لا ندوس إلا أنفسنا بالأقدام وإننا نختق في
هذه المدينة المقفلة. أو لو هبت الريح.

هذا عين الرشاد والحكمة. اقترب يا ديجو، الآن وقد
فهمت. (يسمع صوت إشعاعات في السماء).

الطاعون

نحن أبرياء.

ديجو

(الطاعون يقهقه ضاحكا)

(صائحا)

ديجو

البراءة أيها الجلال، أتفهم ذلك ؟ البراءة.

البراءة لا أعرفها.

الطاعون

إذن اقترب. أقوانا سيقتل الآخر.

ديجو

الأقوى هو أنا رب البراءة. انظر.

الطاعون

(يصدر إشارة إلى الحراس الذين يتقدمون نحو ديجو.
يولي الأخير الأدبار).

اجروا خلفه. لا تتركوه يهرب، فالذي يهرب يصبح ملكا لنا.
ميزوه بعلامة.

الطاعون

(يجري حراس خلف ديجو. المطاردة تؤدي بحركات تمثيل
صامت وتدور على جنبات المسرح، أصوات صفارات تنفخ
بالفم وصفارات إنذار)

إنه يعدو، هو خائف ويعترف بذلك. إنه فقد السيطرة على
نفسه. لقد انتابه الجنون. أما نحن فقد ثبنا إلى الرشاد
وأصبحنا نخضع لنظام، ولكن وسط المكاتب تسمع صراخا
طويلا مكتوما، صراخ القلوب التي تعاني مع الفراق والتي
تحكي لنا عن البحر في النهار وعن رائحة عيدان الغاب
قرب المياه في المساء، وعن أذرع زوجاتنا الرطبة أن وجوهنا
مختومة وخطواتنا معدودة وساعاتنا منظمة، ولكن قلوبنا
ترفض الصمت. إنها ترفض القوائم والشهادات والجدران

الجوقة

التي لا تنتهي والقضبان على النوافذ والصبح المبكر الذي
ترعجه طلقات البنادق. إنها ترفض كل ذلك مثلما ترفض
هذا الذي يجري أمامنا لكي يلوذ ببيت هربا من هذا
الديكور الذي تشكله الظلال والأرقام لكي يجد في نهاية
الأمر مأوى، ولكن المأوى الوحيد هو البحر الذي تفصلنا
عنه هذه الجدران، لتهرب الريح حتى نستطيع في نهاية
الأمر أن نتنفس.

(ديجو يندفع داخل أحد البيوت. الحراس يتوقفون أمام
الباب ويضعون أمامه رقبا يقفون وقفة الديدبان).

الطاعون

: (صارخا) ميزوه بعلامة، ميزوهم جميعا، حتى الكلام الذي
لا يقولونه يمكن سماعه. إنهم لا يستطيعون الاحتجاج ولكن
صمتهم له صليل. حطموا أفواههم وكمموهم وعلموهم
الكلمات الرئيسية حتى يكرروا هم أيضا الشيء نفسه،
حتى يصبحوا المواطنين الصالحين الذين نحتاج إليهم.

الجزء العلوي من المسرح: يتدفق سيل من الشعارات بنغمة
مرتفعة كأنها نداء من مكبرات الصوت وكلما زادت سرعة
ترديدها علت قوتها إلى أن غطت همهمات الجوقة المطبقة
الأفواه. يسود صمت تام)

طاعون واحد وشعب واحد

انضغطوا في المعتقلات، وليجهز بعضكم على بعض،
واشغلوا أنفسكم.

إن طاعونا واحدا جيدا خير من حريتين. عليكم بالترحيل
والتعذيب، وستكون هناك بقية مهما كان الأمر.

(إضاءة جهة القاضي)

فيكتوريا

: كلا، أيها الأب. إنك لن تسلم هذه الخادمة العجوز بحجة
أن العدوى قد أصابتها. هل نسيت أنها قامت بترييتي من
دون أن تتبس بأي شكوى.



- القاضي : إذا قطعت في الأمر بقرار فمن ذا الذي يجرؤ على مناقشته؟
- فيكتوريا : إنك لا تستطيع أن تقرر كل شيء. إن للألم أيضا حقوقه.
- القاضي : إن دوري هو حماية هذا البيت بمنع الوباء من الولوج إليه. إنني...
- (يدخل ديجو فجأة)
- القاضي : من ذا الذي سمح لك بالدخول إلى هنا ؟
- ديجو : إنه الخوف الذي دفع بي إلى بيتك. وإنني هارب من الطاعون.
- القاضي : إنك لا تهرب منه ولكن تحمله معك. (يوجه نظر ديجو بإشارة من إصبعه إلى العلامة التي يحملها الآن تحت الإبط). (صمت وصوت صفارتين أو ثلاث من بعيد) غادر هذا البيت.
- ديجو : أبقني لديك. إذا طردتني فسيخلطونني بالآخرين، ومعني ذلك تكديس الموت.
- القاضي : إنني خادم القانون القديم، ولا أستطيع استقبالك هنا.
- ديجو : لقد كنت تخدم القانون القديم. ولا شأن لك بالقانون الجديد.
- القاضي : إنني لا أخدم القانون من أجل ما يقضى ولكن لأنه القانون.
- ديجو : ولكن إذا كان القانون هو الجريمة ؟
- القاضي : إذا أصبحت الجريمة هي القانون فستكف عن كونها جريمة.
- ديجو : والفضيلة هي التي ينبغي توقيع العقاب عليها.
- القاضي : الواقع أنه ينبغي توقيع العقاب عليها إذا تبجحت وناقشت القانون.
- فيكتوريا : يا كازادو، ليس القانون هو الدافع لك على تصرفك، بل هو الخوف.

- القاضي : وديجو هو أيضا خائف.
- فيكتوريا : ولكنه لم يخن أحدا.
- القاضي : سوف يخون، كل فرد يخون لأن كل فرد خائف، وكل فرد خائف، لأن أحدا ليس مطهرا.
- فيكتوريا : إني ملك هذا الرجل يا أبي، وقد وافقت أنت على ذلك. ولا يمكن أن تنتزعه مني اليوم بعد أن أعطيتني إياه بالأمس.
- القاضي : لم أقل نعم فيما يتعلق بزواجك، بل قلت نعم فيما يتعلق برحيلك.
- فيكتوريا : كنت أعرف أنك لاتحبني.
- القاضي : (ناظرا إليها)
إني أمقت النساء جميعا.
(دقات عنيفة على الباب)
ما هذا ؟
(حارس من الخارج)
إن البيت قد قضي عليه بالغلق لإيوائه مشبوها، جميع السكان مراقبون.
- ديجو : (يقهقه ضاحكا)
إن القانون جيد كما تعلم ذلك حق العلم، ولكنه يعد حديثا نوعا ما فلم تستطع أنت أن تحيط بكل جوانبه. القاضي والمتهمون والشهود. ها نحن جميعا أصبحنا إخوة.
(تدخل زوجة القاضي وابنه الصغير وابنته)
- الزوجة : لقد انغلق الباب بالمباريس.
- فيكتوريا : لقد قضي على البيت بالغلق.
- القاضي : بسببه. وسوف أبلغ عنه، وحينئذ يفتحون الباب.
- فيكتوريا : إن الشرف يمنعك من ذلك.



- القاضي : إن الشرف مسألة خاصة بالناس، ولم يعد ثمة ناس في هذه المدينة.
- دييجو : (تسمع طلقات صفارات وصوت جرس يقترب - ديجو يسمع ويلقي نظرات مجنونة في كل جانب ويمسك فجأة بالطفل)
- دييجو : انظريا رجل القانون. لو أتيت بحركة واحدة فسوف أحطم فم ابنك فوق علامة الطاعون.
- فيكتوريا : ديجو، هذه ندالة.
- دييجو : لا شيء يسمى ندالة في مدينة الأندال.
- الزوجة : (تهرع نحو القاضي)
- عده ياكازادو، عد هذا المجنون بما يريد.
- ابنة القاضي : كلا يا أبت لا تفعل شيئا. هذا أمر لا يعنينا.
- الزوجة : لا تستمع إليها. أنت تعرف تمام المعرفة أنها تكره أخاها.
- القاضي : إنها على حق، فهذا أمر لا يعنينا.
- الزوجة : وأنت أيضا تكره ابني.
- القاضي : ابنك أنت في الحقيقة.
- الزوجة : آه. ليس من الرجولة ألا تتورع عن ذكر أمر سبق لك أن غفرته.
- القاضي : أنا لم أغفر. لقد اتبعت القانون الذي يجعلني أبا لهذا الطفل في نظر الجميع.
- فيكتوريا : أهذا صحيح يا أماه ؟
- الزوجة : أنت أيضا تحتقريني.
- فيكتوريا : كلا، ولكن كل شيء ينهار في وقت واحد. إن النفس لتستريح.
- (القاضي يخطو خطوة نحو الباب)
- دييجو : النفس تترنح ولكن القانون يسندنا، أليس كذلك أيها

القاضي، الكل إخوة (يمسك بالطفل أمامه) وأنت أيضا
سأمنحك قبلة.

الزوجة : انتظريا ديجو، أتوسل إليك. لا تكن مثل الذي تحجر حتى
أصبح قلبه أيضا من حجر.

(تهرع ناحية الباب تسد الطريق أمام القاضي)
سوف تلين أليس كذلك ؟

ابنة القاضي : لماذا يلين؟ وماذا يستفيد من هذا الطفل غير الشرعي الذي
يملاً هذا المكان كله؟

الزوجة : اسكتي، إن الحسد يأكلك، وها أنت قد أصبحت شريرة
الخلق من الرأس إلى القدم. (للقاضي) ولكن أنت، أنت
الذي تقترب من الموت، أنت تعرف حق المعرفة أن ليس ثمة
ما يدعو إلى الحد من هذه الأرض إلا النوم والسلام. أنت
تعرف تمام المعرفة أنك ستنام نوما غير هنيء في فراشك
المنفرد لو فعلت ذلك.

القاضي : إن القانون في صفي، وهو الذي سيسبب راحتي.

الزوجة : إنني أبصق على قانونك. أما أنا ففي صفي الحق، حق
أولئك الذين يحبون ألا يفترقوا، حق المذنبين في الحصول
على العفو وحق النادمين في الإشادة بهم وتبجيلهم، نعم
إنني أبصق على قانونك. هل كان القانون في صفك حين
قدمت من جانبك اعتذارا لهذا الضابط الذي استفزك
للمبارزة ؟ وحين لجأت إلى الغش لتهرب من التجنيد ؟ هل
كان القانون في صفك حين دعوت إلى فراشك هذه الفتاة
التي كانت تخاصم رئيسها النذل ؟

القاضي : اسكتي أيتها المرأة.

فيكتوريا : أمي.

الزوجة : كلا يا فيكتوريا، لن أسكت. لقد لذت بالصمت سنوات
طوالا. فعلت ذلك من أجل شرفي ولوجه الله. أما الشرف



فلم يعد له وجود . وشعرة واحدة من هذا الطفل أثنى عندي
من كل شيء . لن أسكت وسأقول على الأقل لهذا الرجل إن
الحق لم يكن قط في صفه، ذلك لأن الحق، أسمع يا كازادو
؟ هو مع الذين يتعذبون ويتأوهون ويتألمون، إنه ليس مع
الذين يحسبون ويكذبون . هيهات أن يكون معهم .

(دييجو يخلي سبيل الطفل)

ابنة القاضي :

إنها حقوق الزانية .

الزوجة :

(صائحة) إني لا أنكر خطئي، بل سأعلنه على العالم أجمع .
ولكني وقد حاق بي البؤس أعلم أن للجسد أخطاءه بينما
للقلب جرائمه . ومما تقترفه في لهيب الحب ينبغي أن يثير
العطف .

الابنة :

العطف على إناث الكلاب .

الزوجة :

نعم، لأن لهن بطونا للمتعة والإنجاب .

القاضي :

إن دفاعك غير صائب يا امرأة، وسوف أبلغ عن هذا الرجل
الذي سبب هذا الاضطراب، وسوف أفعل ذلك برضا
مزدوج مادمت أفعله باسم القانون وباسم الكراهية .

فيكتوريا :

تبا لك إذ تتطرق بالحقيقة من فورك . إنك لم تحكم قط
إلا باسم الكراهية التي تزخرفها وتقول إنك تحكم باسم
القانون . وحتى أفضل القوانين قد فسد طعمها في فمك
فقد كان الفم المر لهؤلاء الذين لم يحبوا قط . آه ! إن
التقزز يخنقني . هيا يا ديجو خذنا جميعا بين ذراعيك .
ولنتعفن معا . ولكن دع هذا الرجل يعيش فالحياة بالنسبة
إليه عقاب .

دييجو :

اتركيني . إني أخجل لرؤية ما وصلنا إليه .

فيكتوريا :

وأنا أيضا خجلة حتى الموت .

(دييجو يقفز فجأة من النافذة . القاضي يجري هو الآخر .
فيكتوريا تهرب من باب خفي) .

الزوجة	لقد حان الوقت الذي لا بد أن يتفجر فيه من كل دمل قيحه. نحن لسنا الوحيدين، إن المدينة بأسرها تعاني من نفس الحمى.
القاضي الزوجة	أيتها الكلبة. أيها القاضي.
	(ظلام. الإضاءة توجه إلى مقر حارس المقبرة نادا والقاضي يستعدان للانصراف).
نادا	لقد صدر أمر إلى جميع رؤساء الإدارات بأخذ أصوات الواقعين تحت إدارتهم في مصلحة الحكومة الجديدة.
القاضي الأول	إن الأمر ليس بهذه السهولة. إن البعض قد يصوت ضدهم.
نادا	كلا، لو اتبعت المبادئ الصحيحة.
القاضي الأول	المبادئ الصحيحة ؟
نادا	إن المبادئ الصحيحة تقول: إن الانتخاب حر. معنى ذلك أن الأصوات التي في مصلحة الحكومة سيعتبر الإدلاء بها عن تمتع بحرية وإبداء الرأي. أما غيرها من الأصوات فلكي يتم استبعاد كل العقبات الخفية التي ربما اعترضت حرية الانتخابات فإنها ستحصى وفقا لقاعدة الأفضلية بأن يطابق بين متوسط الفروق بين الأصوات المدرجة في القوائم المحلية، وبين حاصل قسمة عدد الأصوات التي لم يدل بها على ثلث عدد الأصوات المستبعدة. معنى هذا واضح؟
القاضي الأول	واضح ياسيدي... أخيرا. أعتقد أنني فهمت.
نادا	إنني معجب بك أيها القاضي. أما أنك فهمت أم لا فلا تنس أن النتيجة الحتمية لهذه الطريقة لا بد أن تكون باعتبار الأصوات المعادية للحكومة ملغاة.
القاضي الأول	ولكنك قلت إن الانتخاب حر.



- نادا : وإنه كذلك في الواقع. ولكننا ننطلق من مبدأ أن الصوت الذي يقول لا ليس صوتا حرا. إنه منقاد للعواطف فهو إذن صوت تتحكم فيه الشهوات.
- القاضي الأول : لم يخطر هذا على ذهني.
- نادا : ذلك لأنك لم تكن لديك فكرة صحيحة عما هي الحرية. (إضاءة في الوسط. يصل ديجو وفكتوريا وهما يجريان في مقدمة المسرح)
- ديجو : أريد الهرب يا فيكتوريا. لم أعد أعرف ما هو الواجب عمله، لقد أسقط في يدي.
- فيكتوريا : لا تتركني. الواجب هو في البقاء بالقرب من الذين نحبهم فاصمد واثبت.
- ديجو : ولكن من فرط اعتدادي بكرامتي لا أرضى أن أحبك. وأنا غير معتر بنفسي.
- فيكتوريا : وما الذي يمنعك من الاعتزاز بنفسك ؟
- ديجو : أنت، فأني أراك أثبت مني.
- فيكتوريا : آه. بحق حبنا لا تسمعي مثل هذا الكلام، وإلا فسوف أسقط وأكشف لك عن جبني كله، فأني لا أبلغ من القوة هذا الحد الذي تظن. إنني أتضعضع وأتضعضع حين أفكر في اللحظة التي أستطيع أن أسلم إليك نفسي. أين العهد الذي كان قلبي يوشك فيه على الفرق فور أن يذكر اسمك؟ أين العهد الذي كنت فيه فور مثولك أمامي أسمع صوتا في دخيلة نفسي يهتف: هذه هي نجدة الغريق. نعم، إنني أتضعضع وأموت من حسرة طغى عليها الجبن، وإذا كنت لا أزال واقفة على قدمي لآن فإن دفعة للحب هي التي تقذفني إلى الأمام. أما إذا اختفيت أنت فإن سيري سينقطع وسأسقط متهاوية.
- ديجو : آه لو كنت أستطيع على الأقل أن أرتبط بك وأن ترتبط

- أطرافي بأطرافك ونغرق في أعماق نوم لا نهاية له.
- فيكتوريا : إنني في انتظارك.
- (يتقدم ببطء نحوها وهي تتقدم نحوه. أنظارهما لا تفترق ويوشكان على الالتقاء حين تنتصب السكرتيرة بينهما)
- السكرتيرة : ماذا تفعلان ؟
- فيكتوريا : (صائحة) هو الحب بكل تأكيد.
- (ضجيج هائل في السماء)
- السكرتيرة : صه. ثمة كلمات لا يجوز النطق بها. وكان عليكما معرفة أن ذلك ممنوع. (توجه كلامها إلى ديجو) انظر
- (تضرب على الإبط وتضع عليه العلامة الثانية)
- السكرتيرة : لقد كنت مشبوها. أما الآن فأنت مصاب. (تنظر إلى ديجو) يا للأسف. شاب في مثل هذه الوسامة (لفيكتوريا) معذرة.. ولكني أفضل الرجال على النساء، وأنا متحيزة لهم، عمت مساء.
- (ديجو ينظر في ارتياح إلى العلامة الثانية فوق جسمه، ويلقي بنظرات مخبولة حوله، ثم يندفع نحو فيكتوريا، ويمسك بجسمها كله)
- ديجو : آه. إنني أكره جمالك مادام سيبقى في الوجود من بعدي. عليه اللعنة إذا تمتع به الآخرون.
- (يضمها إليه في عنف يكاد يسحقها)
- هكذا لن أكون وحدي. ماذا يجديني حبك لو لم يصبه التعفن معي ؟
- فيكتوريا : (تأود) إنك تؤلني. دعني.
- ديجو : أنت خائفة؟ (يضحك كالمجنون وبهزها) أين هي جياذ الحب السوداء. أنت عاشقة حين يصفو الجو. ولكن حين تحل المحنة تهرب الجياذ. على الأقل فلتموتي معي.



فيكتوريا

معك ولكن لن أموت أبدا وأنا ملتصقة بك، فأنا أكره معالم
الخوف والكراهية التي بدت على وجهك. اتركني دعني
حرة لكي أبحث فيك عن الحنان القديم. ثم سيتكلم قلبي
من جديد.

دييجو

(يفلتها بعض الشيء) إني لا أريد أن أموت وحدي وأعز من
لي في الوجود كله تشيح عني وترفض أن تتبعني.

فيكتوريا

(تلقى بنفسها نحوه) آه يا ديجو، معك إلى جهنم لو لزم
الأمر وسوف نلتقي ثانية... إن ساقبي ترتعشان لصق
ساقيك. قبلني لو أن هذه الصرخة التي تتصاعد من أعماق
جسدي والتي ستتطلق، ها هي ذي تتطلق... (تصرخ) آه
(يقبلها في انفعال، ثم ينتزع نفسه منها، ويتركها ترتعد
وسط المسرح)

دييجو

استديري نحوي. كلا كلا ! ليس بك شيء. لا توجد أي
علامة، لن تكون ثمة نتيجة لهذا الجنون.

فيكتوريا

عد، إذا كنت أرتعد الآن فمن البرد، كان صدرك منذ لحظة
يحرق يدي، وكان دمي يجري في جسدي كاللهب، والآن...

دييجو

كلا. اتركيني بمفردي. إني لا أستطيع أن أتسلى عن هذا
الألم.

فيكتوريا

عد، إني لا أطلب شيئا سوى أن أحترق بنفس الحمى، وأن
أعذب بنفس الجرح في صرخة واحدة.

دييجو

كلا، سأكون منذ الآن مع الآخرين، مع الذين يحملون
العلامات. إن عذابهم يروعني ويملؤني بتقزز كان حتى
الآن يفصلني عن كل شيء... ولكني أخيرا أجد نفسي في
المصيبة ذاتها. وهم في حاجة إليّ.

فيكتوريا

إذا كان لا بد أن تموت فسأحسد حتى الأرض التي ستقترن
بجسدك.

دييجو

أنت من الجانب الآخر مع هؤلاء الذين يعيشون.

فيكتوريا

يمكنني أن أكون معك إذا قبلتني وقتا طويلا .

دييجو

لقد حظروا الحب . آه إنني لأسف عليك من كل قلبي .

فيكتوريا

كلا كلا . أتوسل إليك . لقد فهمت ما يريدون . إنهم يعدّون كل شيء لكي يصبح الحب مستحيلا ، ولكني سأكون الأقوى .

دييجو

أما أنا فليست الأقوى . وليست الهزيمة هي التي كنت أريد اقتسامها معك .

فيكتوريا

لا ترضيني سوى الحدود القصوى ، ولا وسط عندي ولا أعرف سوى حبي . لم يعد شيء يخيفني . وحين تتداعى السماء فسوف أتردى في الهوة السحيقة ، وأنا أهتف بحبي لو كنت أمسك بيدك .

(يُسمع صراخ)

دييجو

الآخرون يصرخون هم أيضا .

فيكتوريا

لقد أصبحت صماء حتى الموت .

دييجو

انظري .

(عربة الموتى تمر)

فيكتوريا

لم تعد عيناى تبصران ، فقد بهرهما الحب .

دييجو

ولكن الألم كامن في هذه المصائب التي تثقل وطأتها علينا .

فيكتوريا

ينبغي لي أن أكد لكي أحمل حبي ، فلن أعود إلى إنقال كاهلي بحمل آلام الناس أيضا ، هذا واجب يقع على عاتق الرجال . إنه من هذا النوع من الواجبات غير المجدية ، العقيمة ، العتيدة التي تشغلون بها لكي تتفادوا المعركة الوحيدة التي تعد عسيرة ، لكي تتفادوا النصر الوحيد الذي يحق لكم الزهو به .

دييجو

ما الذي أستطيع أن أقهره في هذا العالم ، اللهم إلا الظلم الذي وقع علينا .



- فيكتوريا أن تقهر الفجيعة التي منيت بها في نفسك، وكل شيء بعد ذلك هين.
- ديجو إني وحيد، والفجيعة أكبر من أن أستطيع قهرها.
- فيكتوريا أنا بالقرب منك والسلاح في يدي.
- ديجو كم أنت جميلة وكم كنت أحبك لو لم أكن أخشى...
- فيكتوريا لو قصدت أن تحبني لما بقي شيء تخشاه كثيرا.
- ديجو إني أحبك ولكن لا أدري من هو الذي على حق ؟
- فيكتوريا ذلك الذي لا يخشى شيئا وقلبي ليس جباناً . إنه يحترق بلهيب واحد صاف عال مثل تلك النار التي يتبادل بها رجال الجبال عندنا تحية بعضهم لبعض . إن تلك النار تدعوك هي أيضا .. انظر، هذا هو عيد القديس يوحنا توقد فيه النيران.
- ديجو وسط حفر ملأى بالجثث.
- فيكتوريا لتكن حفرا ملأى بالجثث أو لتكن مراعي، فما دخل هذا بحبي، إنه على الأقل لا شر منه على أحد، إنه معطاء كريم، أما جنونك وإخلاصك العقيم فلمن يعود خيرهما ؟ على كل حال ليس لي أنا التي تطعنها كل كلمة منك.
- ديجو أنت أبيع فلا تبكين. إيه أيها اليأس ! لماذا حل بنا هذا المرض ؟ كم كنت أود أن أحتمي تلك الدموع وبضم لايزال ملتهبا بمرارتها أرشق خدك بقبلات عدد أوراق شجرة الزيتون.
- فيكتوريا آه، ها أنا أعثر عليك، تلك هي لغتنا التي افقدتها . (تمد له يدها) دعني أتعرف عليك.
- (ديجو يتراجع وهو يشير إلى العلامتين اللتين يحملهما وهي تمد يدها مترددة).
- ديجو أنت أيضا خائفة.

(تلتصق يدها على العلامتين وهو يتراجع فزعا وهي تمد ذراعيها)

فيكتوريا

: تعال بسرعة. لاتخش شيئا.

(ولكن التأوهات واللعنات تتضاعف، هو ينظر إلى كل جانب كأنه كان مخبولا ثم يولي الأدبار)

فيكتوريا

: إيه أيتها الوحدة !

جوقة من النساء

: نحن حارسان، إن هذه المسألة لا طاقة لنا على فهمها وعلاجها، ونحن في انتظار نهايتها سنظل نتكتم سرنا إلى أن يأتي الشتاء. وتحل ساعة الحرية حين تصمت تأوهات الرجال فيعودون إلينا مطالبين بها لا غنى لهم عنه، ذكرى البحار الطليقة وسماء الصيف الخالية وعطر الحب الأبدي. أما قبل ذلك فنحن كأوراق الشجر التي جفت وماتت تحت وابل الخريف قد تتطاير وتسبح قليلا في الهواء، فإذا بثقل الماء الذي تسقى به يهوي بها حتى تتوسد الأرض، نحن الآن أيضا نتوسد الأرض، ونحني الظهور ونترقب أن تتقطع أنفاس صرخات كل المعارك، وننصت في أعماق قلوبنا إلى هذا الأنين الشجي لأمواج البحار الهنية وهي ترتد عن الصخور. وحين تتلفع أشجار اللوز بثوب من زهور ناصعة البياض كأنها ندف من الثلج جمدت عليها سوف تنهض من الأرض قليلا استجابة لأول هبوب للأسل، ثم نقف على الأقدام معتدلات في بهاء ربيع اختلس أوانا غير أوانه، كل الذين نحبههم يقبلون إلينا وكلما تقدموا تزداد شبيها بهذه القوارب التي اثاقلت إلى رمال الشاطئ ورقدت فوقها إبان جزر البحر، ثم إذا بالمد يقبل فيحتويها ويرفعها قليلا قليلا وقد علق بها كساء لزج من الماء والملح ومن نصيب من روائح شتى نفاذة، إلى أن تطفو أخيرا دون البحر العميق، أفلا يهب الريح ... أفلا يهب الريح !؟



ظلام	(إضاءة على الرصيف. ديجو يدخل ويدعو شخصا يلمحه بعيدا جدا في اتجاه البحر. في داخل المسرح جوقة من الرجال)
ديجو	أو هيه. أو هيه
صوت	أو هيه، أو هيه
	(يظهر ملاح. رأسه فقط هو الذي يتعدى الرصيف).
ديجو	ماذا تفعل ؟
الملاح	إنني أنقل مؤونة.
ديجو	للمدينة ؟
الملاح	كلا. المدينة من حيث المبدأ تتولى الإدارة تموينها، بالبطاقات طبعا. أما أنا فأنقل مؤونة من الخير واللبن، ففي عرض البحر سفن ألقت مراسيها، وقد لاذت بها بعض الأسر هربا من العدوى. إنني أحمل رسائلهم وأعود إليهم بمؤونتهم. ولكن هذا محظور.
الملاح	إنه محظور من الإدارة، ولكني لا أعرف القراءة وكنت في البحر حين أعلن المنادون القانون الجديد.
ديجو	خذني معك.
الملاح	إلى أين ؟
ديجو	إلى البحر، إلى ظهور السفن.
الملاح	تلك مسألة محظورة
ديجو	إنك لم تقرأ القانون ولم تسمعه.
الملاح	آه. إنه ليس محظورا من الإدارة، ولكن ممن هم فوق السفينة. إنك لست مأمونا.
ديجو	كيف إنني لست مأمونا.
الملاح	تستطيع على كل حال أن تحملها معك.

دييجو	ماذا أحمل معي ؟
الملاح	صه (ينظر حوله) الجراثيم بكل تأكيد . فقد تحمل إليهم الجراثيم.
دييجو	سأدفع ما يطلب مني.
الملاح	لا تلح فإنني ضعيف الإرادة.
دييجو	كم تطلب من النقود ؟
الملاح	هل تأخذ الأمر على عاتق ضميرك؟
دييجو	حسن.
الملاح	اركب، البحر وادع.
	(دييجو يوشك على القفز، ولكن السكرتيرة تبدو من خلفه)
السكرتيرة	كلا، لن تبهر.
دييجو	ماذا ؟
السكرتيرة	لم يتقرر ذلك، ثم إنني أعرفك. ولن تهرب من الميدان.
دييجو	لن يستطيع أحد أن يمنعني من الرحيل.
السكرتيرة	يكفي أن أريد ذلك، وأنا أريده مادام لي شأن معك... أنت تعرف من أنا.
	(تراجع قليلا كأنها تشده إلى الخلف. يتبعها)
دييجو	أن أموت هذا ليس بشيء ولكن أن أموت ملوثا.
السكرتيرة	أفهم رأيك، وأنا كما ترى غير مكلفة إلا بالتنفيذ، في الوقت نفسه، ولهذا السبب بعينه منحت لي حقوق عليك سمها إن شئت بحق الفيتو.
	(تتصفح مفكرتها)
دييجو	إن الناس الذين من جنسي لا يمتون بصلة إلا إلى الأرض.
السكرتيرة	هذا هو ما أردت أن أقول. أنت في حوزتي على نحو ما،



على نحو ما فحسب، قد لا يكون النحو الذي أفضله، وحين
أنظر إليك. الواقع أنك تروق لي كثيرا كما تعلم ولكن ثمة
أوامر صادرة إليّ.
(تلهو بمفكرتها)

دييجو : كراهيتك لي أفضل عندي من ابتساماتك. إني أحتقرك.
السكرتيرة : كما تريد فإن تبادل مثل هذا الحديث بيني وبينك مخالف
للنظام بعض المخالفة، إن الإعياء هو الذي جعل العواطف
تغلب عليّ، من معاناتي للحسابات التي لا تنتهي، وفي
أمسية مثل هذه الأمسية أرخي لنفسي زمامها.

(أصابها تدير المفكرة. يحاول ديجو أن ينتزعها منها)
السكرتيرة : هذا محال صدقني، وعلى كل ماذا عساك أن تجد فيها،
هذه مفكرة وليس غير، غير أنها تكفيني وهي بمنزلة
ملف نصفه لتسجيل الحوادث ونصفه لتلخيص البطاقات،
(ثم وهي تضحك) وبها أيضا طالع كل يوم فوق الحساب
الفلكي. إنها المفكرة الصغيرة التي تلازمي... لا شيء
سوى ذلك. (تمد له يدها كأنها تريد أن يداعبها، ديجو
يندفع ثانية نحو الملاح)

دييجو : آه لقد رحل.
السكرتيرة : عجبا، لقد رحل فعلا، ها هو ذا رجل يظن نفسه حرا
مع أنه مقيد في السجلات مثل الجميع.

دييجو : ينتقل كلامك من لون إلى لون. تعرفين أن هذا هو ما لا
يستطيع إنسان احتمال، فلننه المسألة من فضلك.

السكرتيرة : ولكن هذا التلون لا مشكلة فيه فما هو إلا لأنني التزم
الصدق دائما. لكل مدينة ملفها، وهذا هو ملف قادش اذكر
لك أن التنظيم محكم، ولا ينسى أحدا.

دييجو : لا ينسى أحدا ولكن الجميع يفلتون من قبضة يديكم.

السكرتيرة : (في غيظ) كلا. ما هذا الذي تقول ؟ (تفكر) ومع ذلك

هناك استثناءات بين الحين والحين. قد ينسى التنظيم إنسانا ولكن مآل الجميع أن يكشفوا له أنفسهم بأنفسهم ويسترعوا انتباهه إليهم، وأنهم لا يتجاوزون مائة عام إلا رأيتهم في زهو كبير لطول عمرهم يا للحمقى، فإن الصحف تعلن خبرهم وتشيد بهم، ما عليّ إذن إلا أن أصبر وأنتظر، ففي كل صباح تأتيني الصحف وأفلي أخبارها. فإذا وجدت فيها ذكرا لأسمائهم قمت بتسجيلها إنني افطر بأسمائهم إن شئت أن أقول. لا مهرب لهم بطبيعة الحال. ولكنهم سيكونون قد عاشوا مائة عام وهم ينكرونك كما تتكرك هذه المدينة بأسرها.

دييجو :

مائة عام ليست شيئا يذكر. إنها تبهرك لأنك ترى الأشياء فرادى ومن قرب شديد. أما أنا فلي نظرة مستعلية تشمل الأشياء مترابطة في مجموعها، هذا هو تفسير ما غاب عنك، وفي ملف يضم ثلاثمائة واثنين وسبعين ألف اسم، أسألك ما قيمة رجل واحد، حتى ولو بلغ المائة من العمر، ثم إننا نعوض من نخسره من أمثاله بشباب لا يتجاوزون العشرين من العمر، فمتوسط الحصيلة ثابت، ولا يستدعي ثباته إلا أن نسرع في الحذف قليلا، هذا هو كل ما في الأمر.

السكرتيرة :

(تحذف اسما في الدفتر. صرخة فوق البحر وصوت سقوط في الماء)

آه. لقد فعلت ذلك من دون تفكير مني. إنه الملاح. مجرد مصادفة.

السكرتيرة :

(دييجو ينهض وينظر إليها بتقزز وارتياح)

إني أكاد أتقيأ من فرط تقزز مني.

دييجو :

إن مهنتي جحود وأنا أعرف ذلك. إنها متعبة ولكن لا بد من إتقانها، وفي البداية مثلا كنت أتحمس لطريقي بعض الشيء، أما الآن فيدي ثابتة.

السكرتيرة :



(تقترب من ديجو)

لا تقتربي مني.

من قليل لن تكون عودة للوقوع في الخطأ وستصان الأسرار.
إنها آلة متقنة كما ستري.

(مع كل جملة منها تزداد اقترابا منه حتى تكاد تلمسه،
بمسكها فجأة من خناقها وهو يرتعد من الغضب)

خلصيني وأتمني إذن مهزلتك الحقيبة، ماذا تنتظرين؟
أنجزي عملي ولا تعبثي بي، فأنا أسمى منك. اقتليني
إذن، تلك هي الوسيلة الوحيدة. أقسم لك. على صون هذا
المنهج البديع الذي لا يترك شيئا للصدف. آه، إن قلت إن
نظرتك لا تشمل الأشياء إلا في مجموعها، فلأنه حين
يكون الحساب بعشرات الألوف فإن هذا وحده هو الذي
يسيل له لعابك. إنه يتحول إلى جداول إحصاء، وجداول
الإحصاء خرساء، تترجم إلى منحنيات ورسوم بيانية،
أليس كذلك؟ إنه عمل يتناول الأجيال المتعاقبة لا جيلا
واحدا، فهو أكثر يسرا، عمل تتاح تأديته في صمت وتحت
أنفاس مداد واحد في محبرة. ولكن لا بد لي من تحذيرك،
إن رجلا فردا متوحدا تصبح به دنياك أشد ضيقا، لأنه
مسكين بأفراحه وأوجاعه، وسأظل مادمت حيا أخلخل
نظامك البديع بصرخات أطلقها قد تعد عندكم صدفة،
إني أرفضك، أرفضك بكل كياني.

أيها الحبيب.

أخرسي. إنني أنتمي إلى جنس كان يقدر الموت مثلما
ييجل الحياة. ثم جاء رؤساؤك فأصبح الموت والحياة
كلاهما عار.

صحيح...

(بهرها) صحيح أنك تكذبين وسوف تكذبين باستمرار حتى
نهاية الزمن. نعم لقد فهمت نهجك. لقد أعطيتهم ألم

ديجو

السكرتيرة

ديجو

السكرتيرة

ديجو

السكرتيرة

ديجو

الجوع والفراق حتى تلهيهم عن ثورتهم. إنك تعملين على إنهاكهم والتهام رزقهم حتى لا تكون لهم فسحة أو همة للفضب، كل منهم في وحدة، على رغم أنه في حشد، وأنا أيضا وحيد، كل منا أصبح وحيدا بسبب جبن الآخرين. أما أنا الذي استعدت مثلهم وأشعر بالمدلة معهم فإنني مع ذلك أعلن لك أنك لا شيء وأن هذا النفوذ الذي امتد حتى جاوز البصر، حتى أظلمت له السماء ليس إلا ظلا ألقى على الأرض ما تلبث الريح النائرة أن تبده. لقد ظننت كل شيء يمكن أن يتحول إلى أرقام وصيغ. ولكن في قائمتك المباركة نسيت الوردة البرية وعلائم السماء ووجوه الصيف وصوت البحر الكبير ولحظات التمزق وغضب الناس، (تضحك) لا تضحكي أيتها الحمقاء. لقد ضعتم وأنا أقولها لك. فوسط أكبر انتصاراتكم البادية أنتم قد هزمتم لأن في الإنسان، انظري إليّ، قوة لن تستطيعي قهرها، هي جنون محض يتقاسمه الخوف والشجاعة معا، إنها جاهلة ومنتصرة إلى الأبد. إن هذه القوة هي التي ستتهض، وحينئذ ستعلمين أن انتصارك لم يكن إلا دخانا. (تضحك)

دييجو : لا تضحكي. لا تضحكي إذن.

(تضحك. يصفعها وفي الوقت نفسه ينتزع رجال الجوقة الكمادات من أفواههم ويطلقون صرخة فرح طويلة ولكن وسط هذا الانطلاق يحطم ديجو قناعه. يمد يده إليه ويتأمله)

السكرتيرة : رائع

دييجو : ماذا تقولين ؟

السكرتيرة : إنك رائع في غضبك. إنك تعجبني هكذا أكثر.

دييجو : ماذا حدث ؟



ها هو ذا أمام نظرك. لقد اختفت العلامة عن بدنك.
استمر، إنك على الطريق السليم.

السكرتيرة

هل شفيت ؟

دييجو

سأقول لك سرا صغيرا .. إن نظامهم رائع، وأنت على حق،
ولكن ثمة خطأ في تركيب آلتهن.

السكرتيرة

لا أفهم.

دييجو

ثمة خطأ يا حبيبي... وبقدر ما تعي ذاكرتي كان دائما
يكفي أن يتغلب رجل على خوفه ويثور حتى تبدأ آلتهن في
الصليل. لا أقول إنها تتوقف فمن أصعب الصعب وقوفها،
ولكنها تصلصل وأحيانا تتعصلج حقا وتحرن.

السكرتيرة

لماذا تقولين لي هذا ؟

دييجو

أنت تعلم أنه مهما صمد إنسان لعمل كالذي أقوم به
فستبقى له مكان من ضعفه. وها أنت ذا قد توصلت بمفردك
لأن تعرف بعضا منها في نفسي.

السكرتيرة

هل كنت تستثيني لو إنني لم أضريك ؟

دييجو

كلا. لقد حضرت للإجهاز عليك وفق القاعدة.

السكرتيرة

إنني إذن الأقوى.

دييجو

أما زلت تشعر بالخوف ؟

السكرتيرة

كلا.

دييجو

إذن فأنا لا أستطيع أن أفعل شيئا ضدك. وهذا أيضا
ضمن المنهج، ولكنني أستطيع أن أقول لك إن هذه المرة
الأولى التي ينال فيها هذا المنهج موافقتي عليه.

السكرتيرة

(تسحب في هدوء. ديجو يتحسس جسده ويظل ينظر
إلى يده، ثم يستدير فجأة في اتجاه التآوهات التي تسمع.
يسير في صمت نحو أحد المرضى الذي يضع كمادة على
فمه. مشهد صامت. ديجو يمد يده نحو الكمادة ويفكها
إنه الصياد. يتبادلان النظر في صمت)

- الصيد : (بعد جهد) عمت مساء يا أخي. إني لم أتكلم منذ مدة طويلة.
- (دييجو يبتسم له)
- الصيد : (رافعا يميناه إلى السماء) ما هذا ؟
- (السماء. أضيئت فعلا. تهب رياح خفيفة يهتز لها أحد الأبواب وترفرف بعض الأقمشة المدلاة من النوافذ. الجموع تحيط بهما)
- (الآن وقد خلعوا الكمامات عن أفواههم ورفعوا عيونهم إلى السماء)
- دييجو : رياح البحر.

(ستار)

“ “ “

القسم الثالث



(يهرول سكان قادش إلى الميدان. ديجو واقف في مكان
أعلى منهم ويدير الأعمال. ضوء قوي هو الذي يجعل
ديكورات الطاعون أقل روعة للأبصار لأنها زادت اكتمالا
وتكشف نسقها)

أزبلوا النجوم المعلقة بأبدانكم.

ديجو

(تزال النجوم)

افتحوا النوافذ.

ديجو

(تفتح النوافذ)

هواء. هواء. اجمعوا المرضى.

ديجو

(حركة)

لم يعد ثمة مجال للخوف، هذا هو الشرط. كل من يستطيع
الوقوف فليقف. لماذا تتراجعون؟ ارفعوا الجباه. فهذه ساعة
الفخر. ألقوا بالكمامات عن أفواهكم وصيحوا معي، إنكم
لم تعودوا تشعرون بالخوف.

ديجو

إيه أيتها الثورة! أنت مثال حي للرفض. (يرفعون الأذرع)
أنت شرف هذا الشعب، هؤلاء الناس الذين كملت أفواههم،
امنحهم القوة من صيحتك.

أيها الأخ، إننا نستمع إليك ونحن البؤساء الذين يعيشون
على الزيتون والخبز والذين تعد عندهم البغلة ثروة كبيرة،
نحن الذين يلمسون النبيذ مرتين في العام: يوم الولادة
ويوم الزواج، لقد بدأنا نشعر بالأمل، ولكن الخوف القديم
لم يتجاوز بعد قلوبنا. إن الزيتون والخبز يضيفان طعما
للحياة، ومهما قل ما نملك فتح نحن نخشى أن نفقد كل شيء
بفقدنا للحياة.

الجوقة

سوف تفقدون الزيتون والخبز والحياة لو تركتم الأمور كما
تسير الآن. اليوم لا بد لكم من هزيمة الخوف لو شئتم أن
تحتفظوا بالخبز فقط. ألا فلتستيقظي يا إسبانيا.

ديجو

الجوقة

نحن فقراء وجهلة، لكن قد قالوا لنا إن الطاعون يساير مدار السنة، فله ربيعته الذي ينمو وينطلق فيه، وصيفه الذي يزهر فيه ثم يأتي الشتاء، وها هو ذا يموت في أغلب الظن، ولكن أحقا جاء الشتاء أيها الأخ؟ أهو الشتاء؟ وهذه الرياح التي هبت للتو، هل هي حقاً رياح البحر؟ لقد كنا دائماً ندفع الثمن كاملاً والنقد هو بؤسنا فهل ينبغي حقاً أن ندفعه الآن والنقد هو دماؤنا.

جوقة من النساء

نحن هنا لنذكركم أهو جدال آخر بينهم حول مسألة لا تهم إلا الرجال؟

يا للحظة التي تضيع ! بالقرنفل بهجة أيامنا، بالصوف الأسود منحة نعاجنا، نذكركم باختصار بأنفاس إسبانيا. نحن ضعيفات ولا نستطيع شيئاً منكم بعظامكم الكبيرة، ولكن مهما فعلتم فلا تتسوا وسط زحمة ظلالكم زهور أجسادنا.

دييجو

إنه الطاعون الذي امتص لحمنا وفرق الأحبة وأصاب بالذبول زهر الأيام. ينبغي أولاً أن نكافح ضده.

الجوقة

أهو حقاً الشتاء؟ في غاباتنا مازالت أشجار الزان مغطاة بثمار صغيرة يكسوها الشمع وجذوعها تطن بالزنابير، كلا إنه ليس الشتاء بعد.

دييجو

فلتجتازوا شتاء الغضب.

الجوقة

ولكن هل نعثر على الأمل في خاتمة طريقنا، أم لا بد من الموت في يأس؟

دييجو

من ذا الذي يتكلم عن اليأس، إن اليأس كمادة على الفم. إن رعد الأمل وبرق السعادة، هما اللذان يخرقان صمت هذه المدينة المتعلقة بسياج. هبوا واقفين كما أقول لكم. إذا شئتم الاحتفاظ بخبز الأمل، أتلّفوا شهادتكم وحطموا زجاج المكاتب وغادروا طوابير الخوف، واهتفوا للحرية في جوانب السماء الأربعة.





الجوقة : نحن أشد الناس بؤسا، والأمل هو ثروتنا الوحيدة فكيف نحرم أنفسنا منه أيها الأخ. إنا جميعا نلقي بهذه الكمادات. (صيحة خلاص كبيرة) آم، على الأرض الجافة ومن خلال شروخ الحرارة هذه هي المرة الأولى التي يهطل فيها المطر هذا هو الخريف الذي يخضر فيه كل شيء، وريح البحر المنعشة. إن الأمل يرفعنا كالموج.

(يخرج ديجو)

(يدخل الطاعون في نفس مستوى ديجو، ولكن من الجانب الآخر. يتبعه السكرتيرة ونادا)

السكرتيرة : ما هي هذه الحكاية ؟ هل يثرثرون الآن ؟ ضعوا كماداتكم.

(بعضهم في الوسط يعيدون وضع الكمادة. ولكن بعض الرجال لحقوا بديجو وأخذوا ينشطون تحت سيادة النظام)

الطاعون : لقد بدأوا يتحركون.

السكرتيرة : نعم كالعادة.

الطاعون : حسن، ينبغي تشديد الإجراءات.

السكرتيرة : فلنشدها إذن.

(تفتح مفكرتها التي تتصفحها بشيء من الملل)

نادا : على رسلك إذن، نحن نسير على جادة الطريق القويمه واتباع النظام وعدم اتباعه هذه هي خلاصة قواعد السلوك والفلسفة كلها، ولكن في رأيي يا صاحب الفخامة أننا نقصر في المضي إلى الغاية القصوى.

الطاعون : إنك كثير الكلام.

نادا : ذلك لأنني متحمس، ولقد تعلمت كثيرا بالقرب منك. المحو هذا هو إنجيلي. ولكن حتى الآن لم تكن لدي أسباب قوية. أما الآن فلدي السبب الذي يخضع للنظام.



- الطاعون : إن النظام يمحو كل شيء، إنك لست في الصف، خذ
حذرك.
- نادا : أذكر أنه كان ثمة نظم قبلك، ولكن كان لا بد من اختراع
النظام العام الذي يقتضي كل حساب، ووضع الجنس
البشري في القائمة السوداء وإبدال الحياة برمتها بفهرست
مبوب، ووضع العالم تحت الطلب وتخفيض قيمة السماء
والأرض في آخر الأمر.
- الطاعون : عد إلى عملك أيها السكير. (إلى السكرتيرة) وأنت
استمري.
- السكرتيرة : بماذا نبدا ؟
- الطاعون : بمن يصادفك، فهذا أدعى للإرهاب.
- (السكرتيرة تحذف اسمين، دقتا إنذار مكتومتان من طبلية،
يسقط رجالان، تتراجع الجموع، والذين يعملون تجمد
حركاتهم وهم مرتاعون، حراس الطاعون يندفعون ويعودون
يرسمون الصليبان على الأبواب ويفلقون النوافذ ويخلطون
الجثث الخ... ديبجو من أعماق المسرح بصوت هادئ)
- ديبجو : يحيا الموت، إنه لا يخيفنا.
- (الجميع في مد بعد تراجع، يعود الرجال إلى العمل،
الحراس يتراجعون في حركة تؤدي بلا كلام هي عين حركة
الجموع من قبل، ولكنها عكس الاتجاه، وتهب الريح حين
تتقدم الجموع، ثم يتراجعون حين يعود الحراس للتقدم).
- الطاعون : احذفي هذا.
- السكرتيرة : مستحيل.
- الطاعون : لماذا ؟
- السكرتيرة : لم يعد يشعر بالخوف.
- الطاعون : حسن، وهل يعرف ماذا سيحل به ؟



- السكرتيرة : إن لديه بعض الشكوك.
- (تحذف. دقائق مكتومة من طبلية. الجموع تتراجع، تكرار للمشهد السابق)
- نادا : رائع. إنهم يموتون كالذباب. آه لو استطاعت الأرض أن تتفجر.
- ديجو : (في هدوء) أنقذوا كل من يسقطون.
- (تتقدم الجموع. بالحركة السابقة عينها ولكن في اتجاه عكسي تؤدي من دون كلام)
- الطاعون : إن تمرده فاق كل حد.
- السكرتيرة : نعم، كل حد.
- الطاعون : لماذا تقولين ذلك في كآبة ؟ عسى ألا يكون قد علم منك عزمنا.
- السكرتيرة : كلا. لا بد أنه اكتشف هذا بمفرده. إنه صاحب بصيرة، هذا هو السبب.
- الطاعون : إذا كان صاحب بصيرة فأنا صاحب قدرة. ينبغي اتخاذ تدابير أخرى، جاء دورك.
- (يخرج)
- (الجوقة تتخلص من الكمادات)
- الجوقة : آه (تهيدة ارتياح) إنه التراجع الأول. إن الوثاق ينحل وعناء السماء قد زال وأنعشها النسيم. لقد عاد خريف الينابيع التي جففها الطاعون بشمسه السوداء، إن الصيف يولي وسنحرم من الكرم، عنبه وعرائشه، ومن الشامام والفلول الأخضر والخس وبعدنا بمخبأ شتوي، نحظى فيه بثمار القسطل المشوية، وبشائر الأذرة وحبها لايزال مخضرا وثمار الجوز التي يشبه طعمها وهي غضة طعم الصابون واللبن أمام المدفئة.

النساء : نحن جاهلات ولكننا نقول إن هذه النعم ينبغي ألا ندفع لقاءها ثمنا باهظا. في جميع جهات العالم وتحت حكم أي رئيس سوف تكون ثمة دائما حبة من فاكهة طازجة في متناول اليد، وكأس من نبيذ الفقراء ومسامرة نار ولو من غصون الكرم الجافة نتحلق حولها وننتظر أن تمر كل الطوارئ.

(من بيت القاضي تخرج ابنته من النافذة وتجري لتختبئ وسط النساء)

السكرتيرة : (تهبط نحو الجموع)

لعمري إن المرء ليظن أننا في ثورة. ومع هذا فليس ذلك هو الواقع، وأنتم تعلمون ذلك حق العلم. ثم إنه ليس الشعب الذي سيقوم بالثورة. فهذا أمر عفى عليه الزمن كل العفاء. لم تعد الثورات في حاجة إلى ثوار. إن الشرطة اليوم تكفي لكل شيء حتى لقلب الحكومة، أليس هذا أفضل على كل حال ؟ هكذا يستطيع الشعب أن يستريح، بينما تفكر له بعض العقول الراجحة وتقرر بدلا منه مبلغ السعادة التي تفلح له.

الصيد : سأسحق فورا هذه الحشرة المؤذية اللعينة.

السكرتيرة : ألا ترون أيها الأصدقاء العزاز أنه من الأفضل الوقوف عند هذا الحد، حينما يستقر أحد الأنظمة فإن ضرره أقل من ضرر تبديله، وحتى لو بدا لكم هذا النظام غير محتمل فمن الجائز أن تظفروا ببعض التيسيرات.

امراة : أي تيسيرات تلك ؟

السكرتيرة : لست أدري أنا، ولكن أنتن يا نساء لا تجهلن أن أي اضطراب يدفع ثمنه وأن صلحا مشرفا أفضل أحيانا من نصر كاذب.

(النساء يقترين. بعض الرجال ينفصلون عن حلقة ديجو)



دييجو

السكرتيرة

لا تستمعوا إلى ما تقول. لقد تم الاتفاق على كل حال.
ما الذي تم عليه الاتفاق ؟ إنني أتحدث بما عليه الرشاد
والحكمة ولا أعرف شيئاً غير ذلك.

رجل

السكرتيرة

عن أي تساويات كنت تتكلمين ؟
لابد من التفكير بطبيعة الحال ولكن يمكن مثلاً تكوين لجنة
منكم. تعزز بأغلبية الأصوات إجراء الحذف، وستكون هذه
اللجنة مطلقة اليد في السيطرة على هذا الدفتر الذي
يتقرر الحذف بمقتضاه. لاحظوا أنني أتكلم على سبيل
المثال.

(تهز الدفتر من طرف ذراعها.

أحد الرجال ينتزعه منها)

(واضحة الغضب)

السكرتيرة

أعد إليّ هذا الدفتر. أنت تعرف أنه ثمين وأنه يكفي أن
أحذف فيه اسم أحد مواطنيكم حتى يموت من فوره.

(الرجال والنساء يحيطون بماسك الدفتر فيسود الزحام
والحركة)

ها هو ذا قد أصبح في يدينا.

لن يكون ثمة موتى.

لقد نجونا.

(ولكن ابنة القاضي تدفع وتخطف الدفتر بعنف وتهرب
في أحد الأركان وتتصفح تسجيلاته بسرعة وتحذف فيها
شيئاً. في بيت القاضي صرخة كبيرة وسقوط جسد. يندفع
رجال ونساء نحو الفتاة)

آه أيتها اللعينة. أنت التي يجب حذفك.

صوت

(تمتد يد تنتزع الدفتر ويصفق الجميع ويجدون اسمها. يد
تشطبه. الفتاة تسقط وهي تصدر صرخة)

- نادا : (صارخا) إلى الأمام هيا، أيتحد الجميع من أجل المحو،
المسألة لم تعد مسألة القضاء على شيء بالحذف، بل محو
المرء نفسه لنفسه، فهيا إلى معركة، المحو إنه التطهير العام.
(يخرج)
- رجل ضخيم : (يمسك بالدفتر) حقا هناك قدر من التطهير لا بد من
إجرائه، فالفرصة جد مواتية لحذف بعض أولئك الذين
كانوا يأكلون السكر بينما نموت من الجوع. (الطاعون الذي
عاد فظهر ويندفع في قهقهة عالية بينما تعود السكرتيرة
وتقف بجانبه. الجميع جامدون وقد رفعوا العيون وثبتوا
وهم في ترقب وسط المسرح، بينما ينتشر حراس الطاعون
وعلامات النجمة إلى سابق عهدها)
- الطاعون لدييجو : هاهم أولاء. إنهم يقومون هم أنفسهم بالعمل. أتظن أن
معاونتك لها جدوى؟
(ولكن دييجو والصيدا يقفزان إلى وسط المسرح، ويندفعان
نحو الرجل حامل الدفتر ويصفعانه ويدفعانه إلى الأرض.
دييجو يأخذ الدفتر ويمزقه)
- السكرتيرة : لا فائدة. لدي نسخة أخرى.
(دييجو يدفع الرجال إلى الجهة الأخرى)
- دييجو : بسرعة إلى العمل. لقد غرر بكم.
- الطاعون : حين يشعرون بالخوف فهو خوف على أنفسهم أما كراهيتهم
فهي للآخرين.
- دييجو : (يعود في مواجهة)
لاخوف ولا كراهية، هذا هو انتصارنا.
(تراجع متزايد من الحراس أمام رجال دييجو)
- الطاعون : سكون. أنا الذي يفسد طعم النبيذ ويجعل الفاكهة تجف.
وإني لأقتل الكرمة إذا أردت أن تثبت العنب، وأجعلها



تخضر إذا أردت لأعضائها الجافة أن تكون وقودا . إنني
أمقت أفراحكم البسيطة وأمقت هذا البلد الذي يدعي
أهله أنهم أحرار من دون ان يكونوا أغنياء . إنني أملك
السجون والجلادين والقوة والدم . سوف تهدم الحديقة
وفوق أطلالها سيعاني التاريخ سكرات الموت وسط صمت
بديع لمجتمعات بلغت حد الكمال . الزموا السكون وإلا
حطمت كل شيء .

(وسط فرقة مروعة يدور نضال يؤدي بالحركة من دون
الكلام . يسمع صوت صليل الأغلال وطنين ودقات الطبل
المنذرة . سيل من الشعارات ولكن كلما تكشف أن الغلبة هي
لرجال ديجو يأخذ التلاحم في التراخي ويطغى هتاف
الجوقة وإن لم يكن متينا على ضجة الطاعون)

الطاعون

: (بحركة غضب شديدة) بقيت الرهائن .

(تصدر منه إشارة فإذا بحراس الطاعون يغادرون المسرح
بينما يعود الآخرون للتجمع)

نادا

: (من فوق القصر) سيظل دائما شيء يتبقى . إن كل شيء
يستمر في عدم الاستمرار ومكاتب مستمرة ، كذلك
سوف تنهار المدينة وتتفجر السماء ويهجر الناس الأرض
ولكن المكاتب ستظل تفتح في ساعة محددة لكي تقوم
بإدارة العدم . الأبد هو أنا وجنتي بها أرشيفها وأختامها
ونشافها .

(يخرج)

الجوقة

: إنهم يهريون . انتهى الصيف بالنظر ، يحدث إذن أحيانا أن
ينتظر الإنسان وحينئذ حلال للنصر أجساد نساءنا تحت
وابل الحب ، ها هي الأحضان الهنيئة الحلوة الدافئة كأنها
عناقيد العنب في مطلع الخريف ، تطن حولها الزنابير ،
والبطون أجران تتدفق عليها خيرات الكرم وقطف الثمار

يتأجج على قمم الأتداء الثملة. إيه يا حبي إن الرغبة تنفجر
كالثمرة الناضجة وأمجاد الأجساد تتدفق أخيرا وفي جميع
أرجاء السماء تمتد بالزهور أيد لا يدرك سرها، ويسيل
نبيذ ذهبي من نافورة لا تتضب. هذه هي أعياد النصر.
فلنبحث عن جميع نساتنا.

(تحمل إلى المسرح في صمت نقالة للمرضى ترقد فيها
فيكتوريا).

دييجو

(مندفعا نحوها) آه ! هذا يدفع إلى اشتهاى القتل أو الموت.
(يصل إلى جوار الجسد الذي بدا بلا حراك) آه أيتها
المنتصرة الرائعة الضاربة مثل الحب، أديرى قليلا وجهك
نحوي، عودي يا فيكتوريا. لا تذهبي إلى هذا الجانب
الآخر من العالم حيث لا أستطيع أن ألحق بك. لا تتركيني.
إن الأرض باردة يا حبي، يا حبي. تماسكي وتمسكي بهذا
الطرف من العالم حيث مازلنا قائمين. لا تدعي نفسك
تغرق، فلو مت فستصبح الدنيا سوداء وسط الظهيرة فيما
تبقى لي من أيام.

جوقة النساء

كلامنا الآن صدق، حتى الآن لم يكن على سبيل الجد.
فالأمر يتعلق في هذه الساعة بجسد يتألم ويتلوى، كم
انبعثت لنا صرخات هي أبداع نطق للإنسان ترحب بالموت
وإذا هذا الموت الذي نناديه يعتمد إلى تمزيق حلق هذه التي
نحبها. ثم يثوب الحب ولكن في اللحظة التي يكون فيها
الأوان قد فات.

(تثن)

فيكتوريا

دييجو

بل هذا هو الأوان. إنها تنهض، دعيني أرك من جديد، واقفة
أمامي مستقيمة العود كالمشعل، تتواثب من شعرك السنة
لهيبه الأسود، ويسطع الحب على وجهك فقد استضأت
بسناه في ظلام المعركة، ذلك أنني حملتك معي إليها، فإن
قلبي يتسع لكل احتماله.



- فيكتوريا : ستسباني يا ديجو، لاريب في ذلك، فإن قلبك لن يتسع
لحمل الفراق كما لم يتسع لحمل الشقاء. آه ! إن الموت
لعذاب مروع حين يعلم المرء أنه سيذهب في طي النسيان.
(تستدير)
- ديجو : لن أنساك. سوف تكون ذاكرتي أطول من حياتي.
- جوقة النساء : إيه أيها الجسد المعذب، كنت من قبل مشتهى العيون، أيها
الجمال الملكي الذي يعكس ضوء النهار، إن الرجل يصرخ
من نشواته للمستحيل، أما المرأة فتتألم لما هو جائز وقوعه.
انحن عليها يا ديجو، واصرخ بألمك واتهم نفسك، هذه هي
لحظة الندم أيها الهارب من ساحة الشرف، هذا الجسد
كان وطنك الذي من دونه لن تصبح شيئاً، وهيهات لوفاء
ذاكرتك أن يكفر عن خطاياك.
- (يصل الطاعون بهدوء بالقرب من ديجو ولا يفصلهما إلا
جسد فيكتوريا)
- الطاعون : هل تخلي منها يدك ؟ تتقصص القوة وعيناك زائفتان أما أنا
فلي ما للمقدرة من عين ثابتة.
(ديجو ينظر إلى جسد فيكتوريا بيأس)
- ديجو : (بعد فترة صمت) دعها تعش واقتلني.
- الطاعون : ماذا ؟
- ديجو : إني أعرض عليك البدل.
- الطاعون : أي بدل ؟
- ديجو : أريد أن أموت بدلا منها.
- الطاعون : هذه إحدى الأفكار التي تراود المرء حين يكون متعبا، هيا
لن يربط قلبك فداؤك لها، فهي قد ذاقت الآن أبلغ عذاب
في الاحتضار، فلنقف عند هذا الحد.
- ديجو : افتراضي هو إحدى الأفكار التي تراود لا من يكون قد
تعب، بل من يكون هو الأقوى.

- الطاعون : انظر إلي، إنني القوة نفسها .
- دييجو : اخلع زيك الرسمي .
- الطاعون : إنك لمجنون .
- دييجو : اخلع ملابسك . حين يخلع رجال القوة ملابسهم فإن مرآهم لا يكون جميلا .
- الطاعون : ربما . ولكن قوتهم كامنة في اهتدائهم إلى اختراع الزي الرسمي .
- دييجو : أما قوتي أنا ففي رفض مثل هذا الزي . إنني متمسك بالصفقة التي عرضتها عليك .
- الطاعون : فكر على الأقل . إن للحياة جوانبها الطيبة .
- دييجو : حياتي ليست شيئا . والذي يعول عليه هو مبررات حياتي ، إنني لست كلبا .
- الطاعون : السيجارة الأولى أفلا تعني عندك شيئا ؟ ورائحة الطين الجاف ساعة الظهيرة ، وقد ملأت ألوانه الحفر على جنبات السور ، وأمطار المساء والمرأة التي تشوق إليها وهي ماتزال مجهولة لك ، وكأس النبيذ الثانية ، أكل هذا لا يعني لك شيئا ؟
- دييجو : قد يكون في هذا كله بعض المتعة ، ولكن هذه الراقدة ستعيش أفضل مني .
- الطاعون : كلا ، لو كففت عن الانشغال بالآخرين .
- دييجو : هذا الطريق الذي أسير فيه إن سلكه إنسان امتع عليه التوقف حتى لو أراد ذلك . لن تقلت مني .
- الطاعون : (مغيرا لهجته) أصغ إلي . إذا عرضت علي حياتك بدلا من حياة هذه فسأضطر لقبولها وستعيش هذه المرأة . ولكنني أعرض عليك صفقة أخرى .
- أمنحك حياة هذه المرأة وأترككما تهربان أنتما الاثنان بشرط أن تتركاني أسوي أموري مع هذه المدينة .



- دييجو : كلا، إني أعرف قدراتي.
- الطاعون : في هذه الحالة سأكون صريحا معك. لا بد لي أن أكون سيد كل شيء والألم أصبح سيد كل شيء. وإذا أفلت مني فإن المدينة بأسرها تقلت مني، تلك هي القاعدة، إنها قاعدة قديمة لا أعرف ممن ورثناها.
- دييجو : أما أنا فإني أعرف جواب سؤالك، إنها موروثه من أغوار الحقب. إنها أكبر منك وأعلى من مشانقك، إنها قاعدة الطبيعة. لقد انتصرنا.
- الطاعون : ليس بعد، مازال هذا الجسد لي، إنه رهينتي، والرهينة هي قوتي الأخيرة، انظر إليه لو أن لامرأة وجه الحياة فهي هذه المرأة. إنها تستحق الحياة، وأنت تريد أن تجعلها تعيش، وأنا مكره على أخذها منك، ولكن هذا سيكون إما في مقابل حياتك أنت وإما في مقابل حرية هذه المدينة، لك الخيار.
- (دييجو ينظر إلى فيكتوريا. في عمق المسرح همهمة أصوات تعلوها الكمامات)
- دييجو : (يستدير نحو الجوقة)
- ما أشد نكبة الإنسان بالموت.
- الطاعون : نعم هو نكبة.
- دييجو : ولكنه نكبة للناس جميعا.
- الطاعون : أيها الأحق، إن عشر سنوات في حب هذه المرأة أفضل من قرن من الحرية لهؤلاء الناس.
- دييجو : حب هذه المرأة هو مملكتي أنا، أستطيع أن أفعل بها ما أشاء. أما حرية هؤلاء الناس فهي ملك لهم، ولا أستطيع التصرف فيها.
- الطاعون : لا سعادة لك من دون ايذاء الآخرين. تلك عدالة هذه الأرض.



- دييجو : إنني لم أولد لأقر مثل هذه العدالة.
- الطاعون : من ذا الذي يطلب إليك إقرارها ؟ إن نظام العالم لا يتغير وفق رغباتك، وإذا أردت له أن يتغير فتخل عن أحلامك ولا تحسب الا حساب ما هو واقع.
- دييجو : كلا إنني أعرف الوصفة. لا بد من القتل لإلغاء جريمة القتل، واللجوء إلى العنف لعلاج الظلم. منذ قرون وهذه الحال تدوم، ومنذ قرون ساد جنسك يملأون بالقبح جراح العالم بحجة علاجها، ويدأومون مع ذلك في إطراء وصفتهم مادام أحد لا يضحك ساخرا منهم في وجوههم.
- الطاعون : إن أحدا لا يضحك لأنني أنفذ. إنني رجل فعال. فعال بكل تأكيد وعملي مثل الفأس.
- الطاعون : إن الإنسان يكفيه على الأقل أن يتأمل الناس ليدرك أن كل عدالة صالحة لهم.
- دييجو : منذ أن أغلقت أبواب هذه المدينة سنحت الفرصة كاملة لأن أتأملهم.
- الطاعون : إذن أنت تعرف الآن أنهم يتركونك دائما بمفردك والرجل الذي يعيش بمفرده لا بد أن يموت.
- دييجو : كلا، هذا خطأ، لو كنت وحيدا لأصبح كل شيء سهلا. ولكن سواء رضوا أم لم يرضوا سيظلون معي.
- الطاعون : قطيع لا يشرح النفس في الحقيقة، ولكن تبدو عليه القوة.
- دييجو : أعرف أنهم ليسوا أطهارا، وأنا كذلك مثلهم.
- الطاعون : زمن العبيد.
- دييجو : زمن الرجال الأحرار.
- الطاعون : إنك لتدهشني. عبثا بحثت عن الأحرار، أين هم ؟
- دييجو : إما أحياء في سجونك وإما أموات في الحفر التي شققتها



لتكديس الجثث. والعبيد هم الذين يتربعون فوق العروش.
اجعل رجالك الأحرار يرتدون زي الشرطة، وستعرف ماذا
يصبحون.

الطاعون

صحيح أنه يحدث لهم أن يصبحوا جناء قساة ولهذا لاحق
لهم كما لاحق لك في التسلط، ما من رجل يتوافر له من
الفضائل ما يبرر التسليم له بالسلطان المطلق، ولهذا أيضا
كان حق هؤلاء الرجال هو حقهم في الرحمة التي ستحرم
أنت منها.

دييجو

الجن هو الحياة كما يحيونها، صغار النفوس، أرياب عوز
وقعود عند السفح من العجز عن بلوغ القمم.

الطاعون

وإني لأتمسك بهم وهم بين بين في مثل هذه السفوح، فإذا
لم يكن لي إخلاص للواقع المهين الذي أحمله معهم فكيف
يكون لي إخلاص لمن هو عندي أكبر مقاما وأشد معاناة
للوحدة ؟

دييجو

إن الإخلاص الوحيد الذي أعرفه هو الاحتقار، (يشير
إلى الجوقة المتهاكة في الساحة) انظر ثمة ما يدعو إلى
ذلك.

الطاعون

إنني لا أحتقر إلا الجلادين، ومهما فعلت فهؤلاء الرجال
سيكونون أكبر منك، وإذا حدث لهم مرة أن يقتلوا فهذا ليس
إلا من جنون عابر. أما أنت فتدبح باسم القانون والمنطق، لا
تهزأ من رؤوسهم المطأطأة، فمنذ قرون ومذنبات الخوف
تمر من فوقهم. ولا تضحك من سمات الخوف البادية
عليهم، فمنذ قرون وهم يموتون ويتمزق حبهم.

دييجو

إن أكبر جرائمهم سيتوافر لها العذر دائما، ولكني لا أجد
عذرا للجريمة التي كانت دائما تقترف ضدهم، بدا لك في
النهاية أن تقننها لهم وسط النظام القذر الذي أتيت به أنت
(الطاعون يتقدم نحوه) إنني لن أرخي نظري.

الطاعون

لن ترخيه، هذا ما تراه عيني إذن أفضل أن أقول لك إنك انتصرت في الاختيار النهائي. لو أنك تركت لي هذه المدينة لضاعت منك هذه المرأة وضعت معها. أما الآن فإن لهذه المدينة جميع فرص التحرير. وكما ترى يكفي لذلك أن يأتي مجنون مثلك. المجنون يموت بلا ريب. ولكن في النهاية وسواء قصر أو طال الأمد ستكتب لهم النجاة (ظلام)، وهؤلاء الباقون غير جديرين بالنجاة.

دييجو

الطاعون

إذن سيموت المجنون.
آه. هل هذا لا يرضيك ؟ ليس هذا ظني، إنها وفق التقاليد من قديم، لحظة من التردد أمام الموت، ثم تكون الكبرياء هي الأقوى.

دييجو

كنت متعطشا للشرف، فهل لا أجد الشرف اليوم إلا بين الموتى ؟

الطاعون

لقد سبق لي أن قلتها، إن الكبرياء تقتلهم. ولكن هذا أمر مضمّن بالنسبة إلى الرجل المسن الذي أصبحته.
(بصوت ينم عن القسوة) استعد

دييجو

الطاعون

إني مستعد
ها هي العلامات. إنها تؤلم (دييجو ينظر في ارتياح إلى العلامات التي ظهرت من جديد عليه) لتتعذب قليلا قبل أن تموت. تلك على الأقل هي قاعدتي. حين تحرمني الكراهية يكون عذاب الآخرين حينئذ مثل الندى. تأوه قليلا فهذا يريحك، ودعني أنظر إليك وأنت تتعذب قبل أن أغادر هذه المدينة (ينظر إلى السكرتيرة) هيا، أنت، إلى العمل الآن.

السكرتيرة

الطاعون

نعم، إن لم يكن ثمة مفر.
أنت قد تعبت، هيه.
(السكرتيرة تجيب بنعم بإشارة من رأسها، وفي اللحظة نفسها

- تغير مظهرها وتصبح امرأة شمطاء تحمل قناع الموت)
- الطاعون : كان ظني دائما أنك لا تحملين قدرا كافيا من الكراهية، ولكن كراهيتي أنا في حاجة إلى ضحايا جدد. أسرعي بهذه الضحية، ثم نبدأ من جديد في مكان آخر.
- السكرتيرة : إن الكراهية لا تسندني في الواقع مادامت ليست من صميم عملي. ولكن الذنب ذنبك على نحو ما. فمن كثرة ما يعمل المرء على البطاقات ينسى أن يترك لعاطفته القياد.
- الطاعون : هذا مجرد كلام في كلام، وإذا كنت تبحثين عن سند (تشير إلى ديجو الذي جثا على ركبتيه) خذيه في غمرة الفرح بالتحطيم. ذلك من صميم عملك.
- السكرتيرة : لنحطم إذن، ولكني لست على راحتي.
- الطاعون : باسم ماذا تناقشين أوامري ؟
- السكرتيرة : باسم الذكرى. فلدي بعض الذكريات القديمة. لقد كنت حرة قبلك وحليفة لمشية الصدف. حينئذ لم يكن أحد يكرهني، وكنت أنا التي تختتم كل أمر وتثبت الحب وتصوغ لكل أقدار قوالبها وكان لي استقرار. وهكذا أصبحت يدي لا ينجم منها خير بعد أن كانت تجود بالعون. ولكنك وضعتني في خدمة المنطق والنظام. وهكذا أفسدت اليد التي كانت أحيانا تتقدم للإنقاذ.
- الطاعون : من ذا الذي يطلب منك إنقاذاً.
- السكرتيرة : هؤلاء الذين هم أقل عظمة من الألم. الجميع تقريباً. عهدت معهم أن أعمل برضاهم. فكان لي مكان في الوجود يوافق خصلتي. أما اليوم فإني أفرض عليهم إرادتي قهراً فأصبح الجميع يكرهونني إلى آخر رممق في حياتهم، وربما كان هذا هو السبب في أنني كنت أحب هذا الذي تأمرني بقتله. لقد اختارني اختياراً حراً وأعرب لي عن إشفاقه علىّ بالأسلوب الذي يوافق خصلته. إنني أحب هؤلاء الذين

يضربون لي المواعيد .

الطاعون : حذار من إثارتي . نحن لسنا في حاجة إلى الشفقة .

السكرتيرة : من ذا الذي يحتاج إلى الشفقة غير هؤلاء الذين لا يرحمون أحدا . وحين أقول إنني أحب هذا فأني أقصد أنني أحسده ، فالحب عندنا نحن الغزاة لا يتجلى إلا في صورة تعسة ، أنت قلت ذلك وتعرف أن هذا هو الذي يجعلنا نستحق أن يرثى لنا بعض الرثاء .

الطاعون : أمرك بالتزام الصمت .

السكرتيرة : أنت تعرف ذلك جيدا ، وتعرف كذلك أنه من كثرة ما يقتل المرء ينساق إلى حد براءة هؤلاء الذين يقتلهم . آه ! ولو للحظة واحدة دعني أوقف هذا المنطق الذي لا ينتهي وأحلم أنني أخيرا أستند إلى جسد . إنني مجبت الظلال وأحسد هؤلاء البؤساء جميعا . نعم أحسد حتى هذه المرأة (تشير إلى فيكتوريا) التي لن تسترد الحياة إلا لترسل الصرخات المتوحشة ، إنها على الأقل سوف تستند على آلامها .

(دييجو يسقط ويكاد يفتersh الأرض ، الطاعون ينهضه)

الطاعون : قف أيها الرجل . إن النهاية لايمكن أن تأتي من دون أن تقوم بفعل ما يلزم . وأنت ترى أنها في اللحظة الراهنة تستسلم للعواطف . ولكن لا تخش شيئا . سوف تفعل ما يلزم فهذا ضمن القاعدة والوظيفة . إن الآلة تصلصل بعض الشيء هذا كل ما في الأمر . وقبل أن تحزن وتتصلج انعم بسعادتك أيها الأحمق فأني أرد لك هذه المدينة .

(صيحات الفرخ من الجوقة . الطاعون يستدير نحوهم)
نعم ، إنني ماض ولكن لا تتصرفوا فأني راض عن نفسي . هنا أيضا كان عملنا على ما يرام ، إنني أحب الضجة التي تثار حول اسمي . وأعرف الآن أنكم لا تسبونني ، انظروا إليّ .

انظروا للمرة الأخير. القوة الوحيدة في هذا العالم. تعرفوا على سيدكم الحق وتعلموا الخوف. (يضحك) من قبل كنتم تزعمون أنكم تخافون سيدكم وأقداره، وكان سيدكم هذا فوضويا يخلط بين الأنواع، يحسب أن في مقدوره أن يكون جبارا وطيبا في آن واحد، وكان مسلكه يخلو من الإصرار والإخلاص، هذا ما ينبغي الجهر به، أما أنا فقد أخذت الجبروت وحده، اخترت السيطرة وأنتم تعرفون الآن أنها أدهى من الجحيم.

منذ آلاف السنين، وأنا أملاً مدنكم وحقولكم بحفر تتكسد فيها الجثث. وبفضل موتاي زادت خصوبة الرمال في ليبيا وإثيوبيا السوداء وأرض فارس مازالت دسمة من عرق ضحاياي. ولقد ملأت أثينا بنيران التطهير وأشعلت على شواطئها آلاف الحرائق الجنائزية. وغطيت بحر اليونان برماد البشر حتى أضحى لونه كاييا. والآلهة، الآلهة المساكين أنفسهم أصابهم التقزز من ذلك حتى أعماق قلوبهم، وحين حلت الكنائس محل المعابد ملأها فرساني السود بالأجساد الصارخة. على القارات الخمس وعلى مر القرون قتلت من دون هوادة ومن دون ضيق.

لا لم يكن عملا بالغ السوء، طبعاً كان له معنى ولكن ليس المعنى كله في تمامه، أقول لكم لو سألتكم رأيي إن نزول الموت بإنسان قد يبعث على الانتعاش ولكنه لا يعد ربحاً جنياً، والخلاصة أن قيمة إنسان تسلب منه الحياة فيصبح ميتاً هي أقل فوزاً من قيمة إنسان تسلب منه الحرية فيصبح عبداً، كذلك كان المثل الأعلى هو الظفر بفضل نزول الموت بأقلية يتم اختيارها اختياراً حسناً، وخطة عملنا اليوم قد بلغت كمالها، لذلك فبعد أن قضينا بالقتل والإذلال على القدر الكافي من الناس هنا فسنُدفع شعوباً بأكملها للجثو على الأرض، فلا جمال ولا مجد يقف في سبيلنا سننتصر

على كل الحوائل.

- السكرتيرة : سوف نتصر على كل الحوائل ما عدا عزة النفس.
- الطاعون : ربما تصاب عزة النفس بالإعياء والإنسان أذكى مما يظن به، (من بعيد هرج ومرج وأصوات أبواق) أنصتوا لهذه الضجة، إن حسن حظي يسعفني من جديد بفرصة للبرهان على صدق حكمي، ها هم أولاء سادتكم القدامى الذين ستجدونهم في عمى عن جراح الآخرين وفي نشوة الطرب لسيطرة الجمود والنسيان. ولن ينقد لكم صبر على رؤية السخافة تتصر بلا امتشاق لسلاح. إن القسوة تلد الثورة، أما الاستهزاء بالعقل فيثبط الشجاعة، المجد للأغبياء لأنهم هم الذين يمهدون لي الطريق، فهم عماد قوتي وأملي. ربما سيأتي يوم تبدو لكم فيه كل تضحية بلا جدوى وتخمد فيه أخيرا لثوراتكم القذرة صرخاتها التي لا تنقطع، في هذا اليوم سوف أسود وسط عبودية في صمتها النهائي، (يضحك) إنها مسألة تثبت بالرأي أليس كذلك ؟ ولكن ثقوا بهذا فإن لي جبيناً مختصراً شأن العنيد.

(يسير نحو غيابة المسرح)

- السكرتيرة : إني أكبر منك سناً وأعرف أن حبهم له أيضاً تشبثه.
- الطاعون : الحب ؟ ما هو الحب ؟
- السكرتيرة : انهضي أيتها المرأة، فقد حل بي الإعياء، ولا بد من إنهاء هذا الأمر.
- (تهض فيكتوريا، ولكن ديجو يسقط في اللحظة ذاتها السكرتيرة تتراجع قليلاً في الظل. فيكتوريا تدفع نحو ديجو).
- فيكتوريا : آه يا ديجو، ماذا فعلت بسعادتنا ؟
- ديجو : الوداع يا فيكتوريا إني راض.
- فيكتوريا : لا تقل ذلك يا حبي، هذا كلام الرجال، كلام الرجال المروع.

- (تبكي) ليس لأحد الحق في أن يكون راضيا بالموت.
- دييجو : إنني راض يا فيكتوريا . لقد فعلت ما ينبغي أن أفعل .
- فيكتوريا : كلا . كان لابد من تفضيلي على السماء ذاتها . كان ينبغي تفضيلي على الأرض كلها .
- دييجو : إن موقفني من الموت موقف سليم ، وفي ذلك قوتي ولكنها قوة تفترس كل شيء وليس للسعادة مكان فيها .
- فيكتوريا : ماذا كانت تجديني قوتك ؟ لم أحب قوة بل أحببت رجلا .
- دييجو : لقد امتصت هذه المعركة دمي ، لم أعد رجلا ومن الحق أن أموت .
- فيكتوريا : (تطرح عليه) إذن احملني معك .
- دييجو : كلا ، إن هذا العالم في حاجة إليك . إنه في حاجة إلى نساءنا لكي يعلمن الناس الحياة . أما نحن فقد كنا دائما غير قادرين إلا على الموت .
- فيكتوريا : أفما ترى أنه كان من أبسط الأمور أن نتحاب في صمت ، وأن نتألم كما ينبغي أن نتألم ، لقد كنت أفضل أن يردك الخوف .
- دييجو : (ناظرا إلى فيكتوريا) لقد أحببتك من أعماق نفسي .
- فيكتوريا : (صائحة) هذا كان لا يكفي ، كلا ليس فيه كل الكفاية في انتفاعي بنفسك وحدها .
- (السكرتيرة تقرب يدها من دييجو ، مشهد احتضار صامت يبدأ . النساء يندفعن نحو فيكتوريا ويحطن بها)
- النساء : تعسا له ، تعسا لكل من يهجرون أجسادنا .
- يا لبؤسنا ، نحن بالأخص اللاتي أصبح الهجر نصيبهن ، وبقي لنا على مر السنين أن نتحمل هذا العالم الذي زعم الرجال من غرورهم أنهم قادرون على إصلاحه . آه ، مادام كل ما

نملك قد استحال إنقاذه فلنتعلم كيف نصون بيت الحب،
فليات الطاعون، فلتأت الحرب في حمى الأبواب الموصدة
سوف ندافع وأنتم إلى جانبنا حتى النهاية، وحينئذ بدلا
من هذه الميثة في وحدة تتناهبها صرعات المبادئ وتزخر
بالشعارات سوف تعرفون ميثة الجماعة معا، أنتم ونحن
ملتحمون معا في عناق مع الحب له ضراوته، ولكن الرجال
يفضلون اعتناق المبادئ، كل منهم يفر من أمه وينفصل
عن حبيبته، مندفعاً بحثاً عن المغامرة، مطعون بلا جرح
مذبوح بلا سكين، صائد خيالات ومنشد متوحد ينادي إليه
تحت سماء صامته، عودة لقاء مستحيلة، يمضي من وحدة
فتتلقفه وحدة إلى أن يبلغ آخر انقطاع له عن العالم، الموت
في تيه الصحراء.

(دييجو يموت)

(النساء يولولن في حين تهب الرياح بمزيد من القوة)

السكرتيرة : لا تبكين أيتها النساء. إن الأرض حلوة لهؤلاء الذين أحبوها
كثيرا.

(تخرج)

(فيكتوريا والنساء ينتحبن جانبا حاملات ديجو، وتتجدد
الضوضاء في عمق المسرح. تسمع موسيقى جديدة ويسمع
صراخ نادا على التحصينات).

نادا : ها هي الزمرة القديمة قد عادت، حكام الماضي حكام
الأبد، المتحجرون، ملاذ الاطمئنان والراحة، أشباه
الطرق المسدودة، أصحاب الجلود البراقّة، أرباب التقاليد
الراسخة نجمهم في صعود ووجوه ناعمة اجتث شعرها
من منبته، إن الصدور كلها تتنفس الصعداء، فقد زال الغم
بطبيعة الحال. ها هم المتكفون في حوانيتهم الصغيرة
بتفصيل ثياب الكراهية، سيلبس كل منكم حسب مقاسه،

ولكن لاتضطربوا فإن خطتهم المثلى، بدلا من أن يسدوا أفواه الذين يصرخون بالأمهم يعمدون هم إلى سد آذانهم، كونوا صما بعد أن كنتم خرسا، انتبهوا، إن الذين يكتبون التاريخ قد عادوا، ستكون أول عنايتهم بالأبطال، سيهيئون لهم مقاما رطبا مريحا تحت بلاط قبر، لا تشتكوا من ذلك فمن الحق أن الناس فوق هذا البلاط خليط. (في عمق المسرح حفلات رسمية تؤدي بالحركة بدون الكلام) تأملوهم لتروا ما ظننتم أنهم فاعلوه. إنهم يلبسون النياشين وولائم الكراهية معدة على الدوام. إن الأرض المنهكة مغطاة بخشب الموت على المشانق، ودماء من أطلقتهم عليهم لقب الحكماء العادلين أقطاب الزمان لاتزال تبرق على جدران هذا العالم. أما أصحابنا هؤلاء فماذا هم يفعلون الآن في ظنكم ؟ إنهم يلبسون النياشين.. افرحوا فسوف تشنف آذانكم خطبُ التهئة بنجاحكم في الامتحان، ولكن قبل أن يدفع بالمنصة إلى الأمام دعوني أسمعكم خلاصة خطبتي أنا، إن الذي أحبيته رغم أنفه قد مات مسروقا مني (الصيدا يندفع نحو نادا فيمنعه الحراس) أرى أيها الصياد أن الحكومات تتعاقب وتتمر، ولكن الشرطة تبقى، إذن فثمة عدالة.

الجوقة : كلا، ليس ثمة عدالة ولكن ثمة حدود . كل من يزعمون أنهم طلقاء من القواعد . وكذلك كل من يريدون أن يجعلوا لكل شيء قاعدة، كلا الطرفين على حد سواء قد جاوز الحدود، افتحوا الأبواب، وليأت الريح والثلج لفلك هذه المدينة حتى تبرق.

(من الأبواب التي تفتح تهب الرياح مطردة القوة)

نادا : ثمة عدالة، ولكن العدالة التي يقيمونها تشمئز منها نفسي، نعم ستبدؤون من جديد، ولكن الأمر لم يعد يعنيني. لا تتوقعوا مني أن أقدم لكم نفسي لكي يقع في أيديكم من

كملت ذنوبه، فإني لا أعد كآبة المذنبين من الفضائل التي خلقت لها. أيها العالم الذي عرفناه من سالف الزمان، ينبغي لك أن ترحل. إن جلاديك قد أصابهم الإعياء وكراهيتهم قد برد بإفراط زوارها، إني عليم بأشياء كثيرة حتى الاحتقار، وقد ولى أوانه وانقضى. وداعا أيها الناس الطيبون، ستدركون ذات يوم ما أقوله لكم الآن، لا تطيب الحياة عند حب الإنسان شيئاً لا يعتد به.

(وسط الرياح التي تهب كالعاصفة نادا يعدو إلى الشاطئ ويلقي بنفسه في البحر. الصياد يجري خلفه)

الصياد

لقد سقط. والأمواج الثائرة تضربه وتخنقه في لبدتها. إن هذا الفم الكاذب يمتلئ بالملح وسيلوذ أخيراً بالصمت. انظروا البحر التائر له الآن لون شقائق النعمان. إنه ينتقم لنا وغضبه هو غضبنا. إنه يدعو إلى اتحاد جميع أبناء البشر بالبحر، إلى اجتماع المنعزلين، إليه أيتها الأمواج ! إليه أيها البحر يا موطن التائرين ! هذا هو شعبك الذي لن يستسلم أبداً، إن الموجة الكبرى التي تكتمها في أعماقك وترضعها بمرارة مياهك سوف تطيح بمدنكم البشعة.

(ستار)

“ “ “

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET